13 me Année No. 625

Lundi - 25 - 6 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٢٥ « القاهرة في يوم الإثنين ١٥ رجب سنة ١٣٦٤ — ٢٥ يونيو سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

من وحي المرأة

للأستاذ عباس محمود العقاد

من أعجب ما يلاحظ على آداب الأمم قلة ما نظمه الشعراء في رثاء النساء، ولا سيما الزوجات

فعلى كثرة الغزل في المرأة نرجع إلى شعر الأقدمين والمحدثين وإلى شعر العرب وغيرهم من الأمم، فلا نرى في لغة من اللغات إلا قصائد معدودات في رثاء النساء والزوجات منهن على الخصوص

فليس أكثر مما نظمه الشعراء في التغزل بالمرأة، ولا أقل مما نظموه في الحزن عليها

وقد رثى شعراء العربية الأمهات كرثاء المتنبي لجدته ورثاء الشريف لأمه، ونظموا العزاء في أخوات الأمراء وقريباتهم، كما نظم المتنبي تلك القصيدة اللامية في رثاء أخت سيف الدولة، ولم ينس أن يقول منها:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

كأنه يعتذر من هذا الشذوذ في قواعد الرثاء بحالة مستثناة لا يقاس عليها، وهي حالة هذه السيدة التي تفضل السادة الرجال!

بل وجد في صدر الإسلام من رثى امرأته معتذراً حيث يقول:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولم يظهر المعنى الإنساني في رثاء المرأة — حليلة كانت أو غير حليلة — قبل عهد ابن الرومي الذي قال في بستان المغنية:

بستان واحسرتا على زهر فيك من اللهو بل على ثمر

وقال من القصيدة بعينها يذكر وفاتها في ريعان الشباب:

يا غصة السرب يا صغيرتها أصبحت إحدى المصائب الكبر

ورثى امرأته رثاء يدل على هول الفجيعة فيها فقال:

عيني شحا ولا تشحا جل مصابي عن العزاء

ونظم قصيدة أخرى في مثل هذا الرثاء

* * *

وليس بالعسير تعليل هذه الظاهرة المتفقة في جميع الآداب العالمية، فإن الأمر مرتبط بمكانة الزوجة في العصور القديمة، ثم في هذه العصور الحديثة. ومما لا اختلاف فيه بين الأمم أن الزوجة كانت في أقدم العصـور كالقنية المملوكة التي لا فرق بينها وبين الجارية الرقيقة، ثم ارتفعت مكانتها فظهرت الزوجة ربة البيت، ولكنها لم تزل في عرف المجتمع شهوة من شهوات الضرورة التي يلجأ إليها الرجل في ساعة ضعفه أو الساعة التي تغلبه فيها الطبيعة الحيوانية، ولم تظهر المرأة التي هي « شريكة حياة »، أو سكن للرجل كما جاء في القرآن الكريم إلا في العصور الأخيرة، وإن كانت لها رائدات سابقات بين بعض الأسر فيما تقدم من العصور

فالشاعر كان يتغزل في المرأة ولا يختجل من ذلك لأن الغزل منسوب إلى الظرف واللباقة

وكان يرثى أمه أو جدته لأن حب الأمهات والجدات محسوب من البر المشروع الذى لا ضعف فيه

وكان يرثى أمهات الأمراء وقريباتهم ، لأن عزاء الأمراء واجب من واجباته المفروضة عليه

ولكنه لم يكن يرثى الزوجة المتوفاة ، لأنها شيء يخصه ولا يفهم معنى الفجيعة فيه عند أبناء عصره إلا على معنى الضعف الذى لا يجمل بالرجال ، وكيف كان يجمل بهم أن يتفجعوا على الزوجة المفقودة ، وقد كانت زيارة قبرها مما يحتاج إلى اعتذار ؟

ولا شك أن آداب الأمم هى خير مسجل لأخلاقها الاجتماعية سواء تعمدها الشعراء أو لم يتعمدوها

فمن الظواهر الحديثة التى تسجل فى الأدب العربى — أو الأدب المصرى — أن الزوجة « شريكة الحياة » تمثلت فى شعرنا العصرى تمثلا واضحاً بليغاً صادق الدلول ، لأننا قرأنا فى سنوات متقاربات ديوانين كاملين فى رثاء الزوجة الفقيدة ، وكلاهما لم يكن ظهوره بالمفهوم قبل هذا الجيل ، لأن وجود شاعرين اثنين يفيان لذكرى فقيدتيهما لا يكفى لإظهار ديوانين فى هذا المعنى ، ما لم يكن هذا المعنى ملحوظاً مقدراً عند الكثيرين من أبناء الجيل الذى ينشآن فيه

قرأنا بالأمس ذلك الديوان الحزين الذى نظمه الشاعر المطبوع الأستاذ عزيز أباظة بك وسماه « الأنات الحائرة » ، لأنه أقوى من أن يسمى بالدموع

وقرأنا هذه الأيام ديواناً آخر فى هذا المعنى للشاعر الألمعى الأستاذ عبد الرحمن صدقى سماه « من وحى المرأة » ، لأنه لم يكن إلا وحياً فاض به حزنه على فقيدته العزيزة ، فخرج فى جملته منظوماً كأنه لا يحتاج إلى ناظم ، وجاء فيه بقصائد ومقطوعات ستبقى فى عداد الشعر الخالد ، سواء منه ما نظم فى هذا الموضوع أوغيرهذا الموضوع

ويدل على أن ظاهرة الزوجة شريكة الحياة هى الباعث على نظم هذين الديوانين أنهما قد نظما فى زوجتين لا تجمع بينهما صفة تعزها غير صفة المشاركة فى الحياة ، فلا يقال إن القرابة هى باعث الرثاء ، لأن إحدى الزوجتين أجنبية عن البلد فضلا عن الأسرة ، ولا يقال إن الذرية هى علة الإعزاز ، لأن إحدى الزوجتين لم تعقب ذرية بعدها ، ولا يقال إن الحب العاطفى هو مصدر هذا الوحى ، لأن الحب العاطفى قد يوجد ولا يوجد معه التفاهم فى الأفكار ولا التعاون على أعباء الأسرة وشواغل النفوس ، ولكنها المشاركة فى الحياة وحدها هى التى يرجع إليها الإيحاء بهذين الديوانين ، حين فهم العصر كله معنى الزوجية التى تقوم على هذه المشاركة بين حياة إنسانين

والزوجة شريكة الحياة — حياة الأدب على التخصيص — هى التى يقول الأستاذ صدقى فى وصفها :

وكنت الغنى من مشكل بعد مشكل
وعقدات نفس تستديم قلاقلى
مشاكل شتى : حاجة النفس للهوى
وحاجة ذى حس ، وحاجة عاقل
جمعت لى الدنيا فأغنيت مُعددى
وأمتعت محروى وزينت عاطلى

أو يقول فى ذكرياتها من قصيدة أخرى :

وخير رفيق أنت فى كل رحلة وخير سمير للحديث ينضد
ونجلس فى حضن الطبيعة صمتنا مناجاتها — إن الطبيعة معبد
ونجلس للأشعار ندرسها . معاً كأنْ ليس غير الكتب فى العيش مقصد

وقد تكون شريكة حياة ولا يكون قوام المشاركة بينها وبين قرينها طول الشغل بالدراسة والمطالعة ، كما قال الأستاذ عزيز فى قصيدته الدالية فى يوم ميلاده :

أقول والقلب فى أضلاعه شرق
بالدمع : لا عدت لى يا يوم ميلادى
نزلت بى ودخيل الحزن يعصف بى
وفادح البث ما ينفك معتادى
وكنت تحمل لى والشمل مجتمع
أنساً يفيض على زوجى وأولادى
فانظر تر الدار قد هيضت جوانبها
وانظر تجد أهلها أشباح أجساد
فقدتها خلة للنفس كافية تكاد تغنى غناء الماء والزاد
وموئلا أجد الأمن الكريم به إذا تعاورنى بالبغى حسادى

تحنـــو علي وترعاني وتبسط لي

في غمرة الرأي رأي الناصح الهادي

وهذه هي صفة الزوجية التي تشترك فيها حياتان بالرأي والعطف ، وتكاد تغني غناء الماء والزاد ، بل تكاد تجعل يوم الميلاد يوماً مشتركا لا يستقل فيه الزوج بذكرى ولادة له لا ترتبط بذكرى الزواج

هـذه الحياة أعجوبة الأعاجيب ، وهي أعجب ما تكون في مألوفاتها الشائعة كل صباح ومساء ، ومن تلك العجائب أنها لم تجود بخير لا شر فيه ولا تصيب بشر يخلو كل الخلو من الخير . وليس عزاء الإنسان على شطر نفسه وصنو حياته باليسير ، ولكنه على كل حال من العزاء النبيل للشاعرين الفاضلين أن مصابهما قد أغنى الأدب العربي بهذه الذخيرة النفيسة ، وسجل للمجتمع المصري هذه الظاهرة الكريمة التي تقترن أبداً بالتهذيب والارتقاء

عباس محمود العقاد

بقية حديث في فرنسا . . .

[إلى الأستاذ توفيق الحكيم]

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

قد يذكر القراء أني كتبت غداة انهيار فرنسا وسقوط باريس في قبضة الألمان سنة ١٩٤٠ في عددي ١٢ ـ ٨ ـ ١٩٤٠ و٢ ـ ٩ ـ ١٩٤٠ من هذه المجلة مقالين أندد فيهما بذلك الموقف الشاذ الذي وقفه بعض كتاب مصر والشرق العربي يبكون فرنسا بدمع غزير وعاطفة حارة ناسين أن فرنسا أشد أمم الاستعمار تعصباً على العرب والمسلمين ونكاية بمن وقع منهم في يدها وتحت سلطانها ، وأنها كانت أعظم عائق في طريق المفاوضين المصريين في مؤتمر « مونترو » لإلغاء الامتيازات الأجنبية في مصر ، وأنها كانت آخر دولة تنازلت عن دفع فوائد الدين المصري بالذهب في الأزمة التي وقعت بهذا الخصوص ، وأنها كانت أشد الأمم احتياطاً وتشدداً في ضمان الحرية للمعاهد الأجنبية في مصر .

وقد يذكرون أيضاً أن هذين المقالين كانا سبباً في أن يمنع ممثل فرنسا في سوريا ولبنان في ذلك الوقت دخول « الرسالة » إلى هذين القطرين الشقيقين برغم أن الرسالة أفسحت صدرها لمن ردوا على رأيي منتصرين لفرنسا ومدافعين عن ميراثها الثقافي وروحها كما تراءى لهم . وكان منهم الدكتور زكي مبارك .

وقد بعثت إلى الرسالة بمقالين آخرين لم ينشرا حينذاك تمهيداً لعقد هدنة بين ممثل فرنسا في سوريا ولبنان وبين الرسالة .

وقد ضاع المقالان ولم يبق لدي منهما إلا مسودات سأحاول الآن جمع ما تفرق من المعاني فيهما لأن الظروف قد صدقت رأيي في فرنسا ، وجلبت عليها عداوة كثير من أقلام عربية وغير عربية من جراء تخبط سياستها ورجالها ، ومن جراء تلك الروح الوحشية البربرية الرجعية الحمقاء التي تزاول بها سياستها مع شعوب العالم العربي ، ومن جراء ذلك التخلف الذهني الذي يبلغ درجة الانحطاط عن مستوى الروح العالمي الإنساني الذي يغمر قلوب بعض الأوصياء على الحضارة ، على الأقل في مظاهر الخداع والإرضاء ومحاولة الوصول إلى الأهداف من طرق ملتوية ولكنها سلمية .

وما أظن أحداً من أذناب فرنسا في مصر يستطيع أن يرفع رأسه ويحرك قلمه الآن للدفاع عن فرنسا إلا بحذر وتمويه ولذعات خفية وظهور بمظهر الغيرة على موقف مصر بموازنة موقف انجلترا منها بموقف فرنسا في سوريا ولبنان وشمال أفريقية ، كما يفعل الأستاذ توفيق الحكيم في « الأهرام » بين آونة وأخرى مع أنه ظل ساكتاً لا يعلن سخطاً ولا نكيراً على سلوك فرنسا الأخير في سوريا ، ومع أنه ربما يكون لاستنكار أمثاله من ربيبي فرنسا الأوفياء شيء ولو قليلا من الاعتبار . حتى إذا ما تحركت انجلترا بإيقاف تلك « المذبحة الكبرى » تحرك قلمه يغمز ويلمز في مظهر الغيرة على الوطنية المصرية . وهو موقف مكشوف ظاهره الوطنية وباطنه تبرير موقف فرنسا بمقارنة صنيعها بصنيع انجلترا في مصر . وما كان أولاه أن يتحرك قبل الآن ليثير الغبار والشرر والنار في وجه الفرنسيين المعتدين الغاشمين على أبناء قومه في المشرق والمغرب ، إن كان يدين بالقومية العربية التي يعيش من الكتابة بلغتها ... أو ليغمز الانجليز كما يشاء .

وأنا بعد أن لست أخيراً حماسته لفرنسا حماسة نمى فيها أدب الحديث والمناقشة مع بعض الجالسين فى إحدى جلسات ندوة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ينبغى ألا أصانعه ، بل ينبغى أن أكشفه وأكشف أمثاله للعالم العربى ليعرف فى ساعة العسرة والأزمات هؤلاء الذين يعيشون معه بأجسامهم فقط . .

وإنى أدعو الأستاذ سيد قطب أن يكشف عن هذا الأثيم الذى جادله فى أمر الشرق العربى وفظائع فرنسا فيه ، وقال تلك المقالة المنكرة « إذا لم يكن بد للانسانية من أن تفقد فرنسا أو أن تفقد هذا الشرق العربى فليذهب الشرق العربى إلى الجحيم ! » فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نبقى على صداقات تنكر الصداقة الأولى التى يعرفها الحيوان قبل الإنسان وهى صداقة الوطن والجنس ، فعليه أن يكشف هذا الدخيل الجاهل وهو معافى من قيود الأخلاق فى مثل هذه الحال .

المقال الأول

مما لم ينشر فى سنة ١٩٤٠

إلى ممثل فرنسا فى سوريا ولبنان

كتب الدكتور زكى مبارك إلى جنابكم كتاباً مفتوحاً نشر فى العدد(١) من « الرسالة » حاول فيه أن يبرئ الرسالة من جرائر المقالتين اللتين أنحيتُ فيهما باللائمة الشديدة والسخط البالغ على أساليب فرنسا الاستعمارية التى لا تفرق فيها بين الشخصية السياسية للمحكومين لها وبين شخصيتهم الإنسانية والأدبية التى تتطلب غذاء لأرواحهم وعقولهم فى هذا العصر الذى تسمونه عصر العلم والنور وارتفاع قيمة المعانى الإنسانية ، وقد أدى عدم التفريق هذا إلى تخلف العرب والبربر المحكومين بكم عن قافلة الحياة الإنسانية بمائة سنة على أقل تقدير . وفى هذا جناية عظيمة على الحضارة بحرمانها من جهود أمة من أذكى أمم الأرض وأعرقها مدنية ، وجناية على المبادئ السامية التى زعمتم أنكم أول من أعلنها فى ثورتكم الكبرى .

وقد طلبتُ من الباكين على فرنسا فى محنتها الحاضرة أن يذكروا محنة بنى قومهم بكم قبل أن يذكروا محنتكم بالألمان ؛ وأن يكفُّوا عن افتتانهم بحضارتكم فتنة العمى عن عيوبكم وجناياتكم على الإنسان بحرمانه من خبز الروح وخبز البدن ... مما لم ير العالم له مثيلاً إلا فى عصور البربرية والهمجية .

وطلبت من هؤلاء الباكين أيضاً أنهم إذا ذكروا « باستور » وفضله على الإنسان كما ذكره الدكتور زكى فليذكروا أنكم الآن تحكمون البشر أقل من حكم البقر والغنم التى كانت فى حظائر « باستور » ليجرى عليها تجاربه وأبحاثه ؛ فقد كان يسمنها ويربيها ويداويها ويبقى على حياتها ويفكر لإنقاذها من الأمراض ويعدها للغاية التى خلقت لها . وإذا أحيا « باستور » ملايين الأجسام فقد أمات قومه ملايين الأرواح والأجسام موتاً مادياً وأدبياً أخف منه الموت بالطاعون والأوجاع الثقيلة التى تقضى على الإنسان مرة واحدة ولا تهدر دمه وترخص روحه .

وإذا ذكروا « شمبوليون » وفضله على مدنية أجداد المصريين كما ذكره الدكتور زكى فليذكروا أنه جاء مصر غازياً فى حملة نابليون الذى نكل بالمصريين تنكيلاً فظيعاً ، فإذا احتفل الأول بأحجار قدماء المصريين فقد أباح الثانى لجنوده أن يتخذوا من الأزهر — صاحب الفضل الأول على الدكتور زكى مبارك ! — أصطبلاً لخيلهم ، وأن يحرقوا أحفاد صانعى الأحجار التى فتن بها « شمبوليون » بالنفط ويضربوا نطاقاً من المواد الملتهبة حول القاهرة وحواضر الأقاليم . وكتب نابليون إلى أحد قواده يأمره بقطع خمسة رءوس كل يوم من أعيان البلاد كما يقطع هو كل يوم عشرة رءوس منهم !

وإذا ذكروا « السوربون » وفضله على الأدب والعلم فليذكروا الأزهر الذى اتخذته جنودكم اصطبلاً للخيول ولم يرعوا للعلم والدين حرمة .

---

(١) العدد ٣٧٥ تاريخ ٩ سبتمبر ١٩٤٠

وإذا ذكروا انتفاعهم بعلومكم وفنونكم ، فليذكروا أنكم كنتم أشد الأمم إصراراً على الاستمرار فى إهدار الكرامة المصرية وكنتم الشوكة الوحيدة فى حلوق المفاوضين المصريين فى مؤتمر « مونترو » لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، التى كانت تجعل من السنغالى التابع لكم شخصاً له امتياز على المصريين فى ديارهم . وأنكم كنتم آخر دولة وقعت على محضر إلغاء صندوق الدين : رمز الذل الاقتصادى الذى أصاب مصر ، فلم توقعوا إلا بعد هزيمتكم ونكبتكم ، وأنكم كنتم الوحيدين الذين أصروا على دفع فوائد ديونهم فى مصر ذهباً لا ورقاً ، وأنكم وحدكم الذى عنيتم بفرض ضمانات شديدة لاحتلالنا بثقافتكم .

وإذا ذكروا التماثيل والأنصاب التى تجمل مدنكم ، فليذكروا أن أشرف نُصُب فيها وهو ضريح الجندى المجهول فى باريس يثير فى نفوس العارفين ذكرى أكبر مخزاة ومظلمة ونكران للجميل ! فقد ذكر سكرتير مسيو « كلنصو » فى مذكراته أن حكومتكم لما فرغت من إقامة بناء ذلك النصب التى تحته قبر الجندى المجهول فى باريس أرادوا أن يضعوا فيه جثة جندى فرنسى ، فذهبوا إلى ميدان موقعة « المارن » الشهيرة ، وصاروا ينبشون لإخراج جثة . وشاء الله أن يسجل على فرنسا لعنة أبدية حيث أرادوا لها فخراً . فكانوا كلما نبشوا عن جثة وجدوها جثة قتيل من جنود شمال إفريقية فيردمون عليها ، وهكذا لم يهتدوا لجثة جندى فرنسى « أبيض » إلا بعد عثورهم على ثلاثة عشر جثة للمغاربة ! ومع هذا لم ينصفوا قوم هؤلاء القتلى الذين ذهب ملايين منهم ضحايا فى سبيل فرنسا أى إنصاف ، ولم يمكنوهم من أقل الحقوق الإنسانية وهى حق الحياة والعلم ، وأبو أن يضعوا جثة أحدهم مكان جثة فرنسى قح ...

وإذا ذكر الباكون أنهم عاشوا بباريس فى رحاب الشراب والحب والغزل والأنس ، فليذكروا أن بطلاً كريماً هو المجاهد محمد عبد الكريم الخطابى بطل ثورة الريف فى مراكش الذى تفخر به قوميتهم العربية أعظم من فخرها بأى قلم تافه لأحدهم ... قد مضى عليه خمسة عشر عاماً « الآن مضى عليه عشرون عاماً » وهو ملقى فى أصفاده على صخور جزيرة مدغشقر ، وأنه لم يسلم نفسه لفرنسا إلا بعد عهد قطعته على نفسها ثم نكثت به وخانت شرف اسمها ، وأن هذه الأمة الفرنسية التى لا يزال قلبها يتنزى ألماً وحسرة على نهاية بطلها نابليون لا تشعر أى شعور إنسانى نحو أمثاله من الذين نهضوا يذودون عن حرية قومهم ومجدهم .

فيا جناب ممثل فرنسا ! أظن أنك رجل تغار على قوميتك وتدافع عنها ! فدعنا نفعل ذلك دائماً

وأظنك ترى معى أن كل من يضفى على فرنسا حنان قلبه ويغسلها بدموع عينيه من المصريين إنما هو أحد رجلين : رجل جاهل بجرائركم على أمته وكرامة قومه ، قد استسلم للفتنة بما عندكم ، وهذا لا يليق به أن يتصدى لقيادة الشباب بقلمه مهما كان له من الحسنات فى مجال « الترف العقلى » ولا يجوز لكم أن تعتبروه معبراً عن شعور هذه الأمة المصرية حين يرسل لمصرع أمتكم دموعاً تشهد عليه أنه غير سليم الموقف ولا صحيح الطبع ، وإنما هو ذو مزاج مؤوف ورأى منكوس .

وإما رجل يعرف هذه الجرائر ولكنه يطويها عن الناس فى نفسه ولا يذكرهم بها لييين لشباب قومه المفتون جوهر نفوسكم وحقيقة حضارتكم ، لأنه صريع الخيانة أو مأجور القلم . وهذا لا شك رجل تافه الصداقة تافه العداوة ؛ فليس فيه نفع لكم لأنه لم ينفع قومه . وهو جدير أن ينقلب عليكم حين تفوته المنفعة ، ولأنه لم يعشق روحكم التى يزعمها روح أحرار ، فلو عشقها حقاً لكان أول من حاكمكم إليها حين رآكم تحيدون عنها وخصوصاً مع بنى قومه

وإذا كان فيما مضى كتاب خادعون أو مخدوعون فتنوا بمظاهر حياتكم فتنة العمى عن حياة قومهم المعذبين بكم ، وصالحوكم ولم يذيقوكم مرارة العداوة والثأر من سمتكم لإخوانهم ، فإن الزمن الآتى لن يسمح لأمثالهم أن يسيطروا على عقول الشباب العربى ، بعد أن نطقت حوادث الزمان أنكم قوم لا تصلحون لوصاية على أحد إذ أنكم أنتم محتاجون فى الواقع إلى أوصياء يهدونكم سبيل الرشد .

عبد المنعم محمد خلاف

فى إرشـــاد الأريب

إلى معرفة الاديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

— ٦ —

* ج ١٣ ص ٤٧ :

ولما نشرتُ أفاويقَها   طوى الناس ديباجة البحترىّ

وجاء فى الحاشية :

لعل الأفاويق جمع فواق ، من فاق بنفسه فواقاً : إذا كانت على الخروج أو مات وهذا يناسبها نشرت ، وكنت على وشك أن أجعلها أقاويلها جمع أقوال وتكون نشرت بمعنى أبرزت غير أنى أبقيتها ونبهت على ما كنت أريده ليكون للقارئ الخيار .

قلت : أفاويفها ... فى المخصص : الفَوف الثوب الرقيق ، وفى اللسان والتاج : الأفواف ضَرْب من عَصْب البرود ، وفى الأساس : شعر كأنه أفواف . وحلة أفواف وبرد مفوّف ، أصله من الفوف وهو نقط بياض فى أظفار الأحداث الواحدة فوفة . وقال أبو القاسم فى مقدمة مقاماته : ولم يأتل فيما يعود على مقتبسيها بجليل النفع وعظيم الجدوى فى بابَى العلم والتقوى من انتقاء ألفاظها وإحكام أسجاعها وتفويف نسْجها وإبداع نظمها . وقال صاحبها الزمخشرى فى الشرح : التفويف التوشية وبرد مفوف فيه خطوط بيض ، قال ابن دريد : المفوف الموشى فيه رقة ، ويقال للوشى أفواف قال :

قد كذبتم ما لباسكم   جيد الأفواف والحبره
بل لباس القين بزكم   ولباس القين مشهره[1]

وروى ياقوت فى كتابه لأبى حيان من (مثالب الوزيرين) : ثم ما ذنبي إذا قال لى (يعنى الصاحب) : من أين لك هذا الكلام المفوف المشوف الذى تكتب به إلىّ فى الوقت بعد الوقت ؟ فقلت : وكيف لا يكون كما وصف مولانا وأنا أقطف ثمار رسائله ... وأرد ساحل بحره ... فيقول : كذبت وفجرت لا أم لك ! ومن أين فى كلامى الكدية ... والتضرع والاسترحام ؟ كلامى فى السماء ...

ولأبى هلال العسكرى فى مقطوعة :

وعلى الربا حلل وشاهن الحيا   فسهم ومزخرف ومفوف

وروى ابن حجة فى (خزانته) لابن قاضى ميلة :

بعيشى ، ألم أخبركما أنه فتى
على لفظه برد الكلام المفوف ؟

و (التفويف) من أنواع (البديع) ...

وبيت (الأفاويف) ختام قصيدة لعلى بن الحسن الباخَرزى صاحب (دمية القصر) فى أبى القاسم على بن موسى نقيب الطالبيين بمرو ، وقد جمع أفوافاً على أفاويف .

* ج ١٦ ص ١٩٦ :

وقنّعنى الزمات فلستُ آسٍ
على فوت الثراء وأنت عندى

وجاء فى الشرح : آسٍ : حزين ، وأصله آسيا لأنه خبر ليس ، لكنه جره على توهم الباء لكثرة مجيئها فى الخبر .

قلت : فلست آسَى .

أسِيَ يأسَى أسًى فهو آس وأسيان وأسوان كما فى اللسان . وفى حديث أُبىّ بن كعب : والله ما عليهم آسى ولكن آسى على من أضلوا كما فى النهاية .

* ج ١٥ ص ٩٨ :

ومن شعر أبى تراب (على بن نصر الكاتب)

حالى بحمد الله حال جيِّدَهْ
لكنه من كل خير عاطل

(١) (بزكم) جاءت فى شرح المقامات بالذال وهو خطأ . (القين) فى اللسان : قيل : كل صانع قين والجمع أقيان وقيون ، وفى التاج : كل عامل بالحديد قين عند العرب ، وقال السكرى : كل صانع يعالج صنعة بنفسه فهو قين إلا الكاتب . . . (قلت) : لباس الصانع أو العامل فى وقت العمل أجمل لباس فى الدنيا .

قلت : (حالى بحمد الله حال جيد) والحال يذكر وإن كان التأنيث أكثر .

* ج ٨ ص ٢١ : ورفع مناور العلم .

وجاء فى الشرح : وجمعها (أى منارة) مناور لا تقلب الواو همزة لأنها أصيلة ، والقلب إذا كانت زائدة ، وكانت فى الاصل (منائر) .

قلت : الأصل صحيح . والقاعدة فى هذا الجمع معلومة ، وشذت منائر ومصائب . وقد ورد الجمعان فى كلامهم ومعجماتهم . وكان ابن جنى يقول : همزة مصائب من المصائب ...

* ج ١٥ ص٩١ : كتب عبد الله بن المعتز إلى على بن مهدى :

يا باخلاً بكتابه ورسوله أأردت تجعل فى الفراق فراقا
إن العهود تموت إن لم تحيها والنأى يحدث للفتى إخلاقا

فكتب إليه على بن مهدى :

لا والذى أنت أسنى من أجدّه عندى وأوفاهم عهداً وميثاقا
ما حلت عن خير ما قد كنت تعهده ولا تبدلت بعد النأى أخلاقا

قلت : (والنأى يحدث للفتى أخلاقا) بفتح الهمزة جمع خلق ، وهو ما أراده ابن المعتز .

* ج ١٦ ص ٢٦٢ : وكان (الحريرى) غاية فى الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة وله تصانيف تشهد بفضله ، وتقر بنبله ، وكفاه شاهداً كتاب المقامات التى أبرّ بها على الأوائل ، وأعجز الأواخر . وكان مع هذا الفضل قذراً فى نفسه وصورته ولبسته وهيئته ، قصيراً ذميماً بخيلاً مبتلى بنتف لحيته .

قلت : دميماً لا ذميماً .

فى الأساس : دممت ودممت[1] دمامة ، وهو دميم الخلق ذميم الخلق ، وقد أدمّت فلانة وأدْمت جاءت به كذلك .

وفى التاج : قال ابن الأعرابى : الدميم بالدال فى قده وبالذال فى أخلاقه ، وأنشد :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً : إنه لدميم

إنما يعنى به القبيح ، ورواه ثعلب بالذال فرُد ذلك عليه .

قال الأنبارى فى (نزهة الألباء) : كان الحريرى دميم الخلق ، فيُحكى أن رجلاً قصده ليقرأ عليه ، فاستدل على مسجده الذى يقرأ فيه ، فلما أراد الدخول رأى شخصاً دميم[1] الخلق ، فاحتقره ، وقال : لعله ليس هو ، فرجع ثم قال فى نفسه لعله يكون هذا ، ثم استبعد أن يكون هو ، والشيخ يلحظه ، فلما تكرر ذلك منه ، تفرس الشيخ منه ذلك ، فلما كان فى المرة الأخيرة قال له : ارحلْ ، فأنا من تطلب ؛ أكبر من قرد محنّك ...

والقصة التى فيها البيتان الرائيان — وقد رواها ابن خلكان — مشهورة .

* ج ١٠ ص ١٩٠ :

فأنت امرؤ لو رمت نقل مَتالع ورضوى ذرتها من سُطاك نواسف

قلت : (متالع) بضم الميم كما ضبط القاموس وغيره ، وهو جبل فى البادية فى بلاد طىء . والبيت لأبى العلاء صاعد البغدادى فى أبى عامر المنصور .

* ج ١١ ص ٨٠ : توفى القاضى السجزى (الخليل بن أحمد ابن محمد) بسمرقند وهو قاض بها سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة . وقال أبو بكر الخوارزمى يرثيه :

ولما رأينا الناس حيرى لهدّة بدت بأساس الدين بعد تأطد
أفضنا دموعاً بالدماء مشوبة وقلنا : لقد مات الخليل بن أحمد !

قلت : بعد توطد ، وتوطد الشىء تثبت ، ولم ترد (تأطد) فى كلام ، ولما اضطر الوزن أبا تمام إلى أن يقول فى بيت له

(١) دم من بابى ضرب وتعب ومن باب قرب لغة (المصباح) .

(١) جاءت (دميم) فى الجلتين فى (نزهة الألباء) بالذال أيضاً ...

(اتأطدت) وهى (اتطدت) ضجّ اللنونون ، ونقد الناقدون . وأبو بكر من الهمز والخطأ فى بيته فى مندوحة .

* ج ١٦ ص ٩٩ : كتب الفتح بن خاقان إلى الجاحظ كتاباً يقول فى فصل منه : إن أمير المؤمنين يَجِدُ بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه ، وقد كان ألتى إلى من هذا عنوانه ، فزدتك فى نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك ؛ فاعرف لى هذه الحال(١) ...

قلت . يَجِدُ بك من وجد يجد لا من جدّ يجد . ووجد به : أحبه واغتبط به كما فى النهاية . ولأبى العباس الزرارى :

لى صديق قد صيغ من سوء عهد ورمانى الزمان فيه ببعد
كان وجدى به فصار عليه وظريف زوال وجد بوجد

وجدى به : حبى إياه ، ووجدى عليه غضبى عليه . ولهذا الفعل مصادر ومعان كثيرة تذكرها المعجمات .

* ج ١٦ ص ١٦٣ : وهذا كعب بن مالك الأنصارى عتب على امرأته فضربها حتى حال بنوها بينهما فقال :

لولا بنوها حولها لخبطتها إلى أن تُدانى الموت غيرمذمم(١)
ولكنهم حالوا بتنعى دونها فلا تعدميهم بين ناه ومُقسم
فمالت وفيها حائش من عبيطها كحاشية البرد اليمانى المسهّم(٢)

وجاء فى الشرح : الحائش : أصلا جماعة النخل ، ولا واحد له .

(قلت) : جائش — بالجيم — أى فائض ، سائل .

و (قلت) : أكرم من الشعر المتقدم شعر القائل :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلت يمينى حين أضرب زينبا

(١) تلكم منزلة أبى عثمان عند السلطان

(١) فى البيت خرم ، وهو كثير فى شعر ولا يكون إلا فى اول الجزء في البيت .

(٢) عبيطها : دمها . فى الصحاح : العبيط من الدم الخالص الطرى

بحث في الصـــــلاة

للدكتور جواد علي

بين يدىَّ رسالة للمستشرق اليهودى المعروف المرحوم أويكين ميتوخ (Eugeen Mittwoch) بحث فيها عن الصلاة عند المسلمين وقارن بينها وبين الصلاة عند اليهود. وقد أجهد المستشرق نفسه ليصل إلى نتيجة كان يقصدها ويريدها قبل الدخول فى الموضوع، هى أن الرسول الكريم أخذ صلاته من صلاة اليهود كما أخذ سائر الطقوس والعبادات[1].

وبين يدىَّ أيضاً بعض الأبحاث العلمية التى قام بها نفر من المستشرقين فى نفس هذا الموضوع، أى تطور الصلاة ونشوء العبادات فى الإسلام، كبحث المستشرق المجرى اليهودى كولدزيهر (Goldzyiher) وبحث المستشرق الهولنـــدى جوينبول (Juynbole)[2] وأبحاث المستشرق المرحوم بيكر (Becker)[3] وهى تسير على نفس الأسلوب ولكنها تختلف فى النتائج. إذ من رأى هؤلاء أن النبى عليه الصلاة والسلام أخذ صلاته وعباداته عن النصارى لا اليهود.

وبالنظر إلى ما فى أبحاث هؤلاء المستشرقين من أمور لا تقرها الحقيقة رأيت أن أكتب فى هذا الموضوع، وأن أقارن بين الصلاة فى الإسلام وبين الصلاة فى اليهودية خاصة، لكونها أساس الصلاة عند المسيحيين فأقول:

أجمعت المذاهب الإسلامية قاطبة على أن هنالك خمس صلوات مفروضة فى اليوم، وأجمعت كذلك على عدد الركعات؛ فصلاة الصبح ركعتان، وصلاة الظهر والعصر والعشاء أربع ركعات إلا صلاة المغرب فإنها ثلاث ركعات[4].

(١) راجع بحثه المقدم إلى الأكاديمية الملكية البروسية سنة ١٩١٣ بعنوان تطور الصلاة الاسلامية وطقوسها.

(٢) راجع بحث (Juynboll) الذى طبعه فى مدينة ليدن الهولندية عام ١٩١٠ بعنوان Handboak of tte Jslamic law.

(٣) راجع أبحاثه فى مجلة (الاسلام) السنة الثالثة ج ٤ عن رأى المستشرق المجرى راجع كتابه «دراسات إسلامية» ج١ ص ٣٥.

(٤) راجع كتب الفقه فى بحث الصلاة على اختلاف المذاهب مثل كتاب الوضع لأبى زكريا الجناوونى يحيى بن الخير (القاهرة) المطبعة البارونية ١٣٠٥هـ، وكتاب النيل وشفاء العليل لعبد العزيز إبراهيم المصعبي، وكتاب شرح النيل وشفاء العليل للاطفيشى وهي على مذهب الأباضية.

ولم تختلف المذاهب الإسلامية قديماً وحديثاً فى الشكل الأساسى للصلاة ولا فى هيكلها وكيفيتها، وإنما اختلفت فى مسائل فرعية طفيفة لا علاقة لها بالوضع العام للصلاة. فطريقة الركوع والسجود واحدة بين الجميع، وعدد الركعات ثابت كما قلنا، والاتجاه نحو القبلة واجب لا خلاف فيه. وأما فيما عدا ذلك مثل الجهر بالقراءة أو الإخفات، وإسبال اليدين فى الصلاة أو «التكتيف» فوق السرة أو تحتها، وجواز القنوت أو عدم جوازه، ورفع السبابة فى التشهــد أو عدم رفعها وإدارة الرأس نحو اليمين واليسار حين السلام أو عدم ذلك، ثم الحد الأدنى للآيات التى يجب قراءتها فى الصلاة، وأمثال ذلك، فإن كل هذه لا تؤثر على هيكل الصلاة وشكلها كما قلنا ويكاد يصعب على غير المسلم تمييز هذه النقاط

« والصلاة هى الدعاء وعبادة الله الرحمن الرحيم بأقوال وأفعال ونظام وترتيب جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واتبعه الصحابة وفسره أئمة الدين الذين تفرغ كل منهم لوصف ما وصل إليه وتمحيصه من صحيح العلم ودقيق العمل كما كان عن النبى صلى الله عليه وسلم وما فعل الصحابة الذين عاصروه وقاموا باتباع ماجاء به.. ولكم فى رسول الله أسوة حسنة ... »[1].

والصلاة مظهر من مظاهر تعلق الفرد بخالقه وواجب من واجبات الإنسان الدينية والانفرادية والاجتماعية فى كل الأيام وعند جميع الشعوب وهى التكلم مع الله وطلب ما يحتاج إليه الإنسان مع الشكر لأجل المراحم الإلهية[2]. فى الصلاة إذاً عنصران: عنصر الشكر للاله ومدحه وتبجيله على عظمته وبديع صنعه؛ وعنصر الطلب من الله القوى القهار الذى يسأل فيجيب

وهى فرض فى الإسلام واجب لأنها ركن من أركان الدين ولأنها « مفتاح من مفاتيح الجنة »[3] والصلاة عماد الدين[4] جاء فى القرآن الكريم « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون »[5] وجاء فى القرآن الكريم أيضاً « ما سلككم فى

(١) راجع كتاب الاسلام لسعيد لطفى حسن. القاهرة سنة ١٩٣٢ ص ٢٣٨.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ج ٢ ص ١٢. طبعة الجمعية البروتستانية Hastings. Dictionary of the Bible P, 744.

(٣) كنز العمال ج ٤ ص ٦٤. نمرة ٩٠٤١. mittwocb. P, 5.

(٤) كنز العمال حيدر آباد ١٣١٣ ج ٤ ص ٢٢ نمرة ١٢٠٦.

(٥) القرآن الكريم.

سقر؟ قالوا لم نكن من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين»[١] وجاء عن النبي (ص) أنه قال «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر جهاراً»[٢] وجاء أيضاً « من ترك الصلاة متعمداً أحبط الله عمله وبرئت منه ذمة الله حتى يراجع الله توبته »[٣] . فالصلاة إذاً فرض واجب على كل مسلم ؛ من تركها متعمداً فهو ليس بمسلم[٤] وعد كافراً وجازقتله[٥]. وفى الكتب التى أرسلها الرسول إلى القبائل العربية ذكر للصلاة بعد الإيمان[٦] وفى الحديث « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا »[٧]

والصلاة فى الأصل الدعاء والرحمة والاستغفار والبركة[٨] ثم خصصت لنوع معين من أنواع العبادات فيها ركوع وسجود وحركات معينةوقواعدثابتة لا تتأثر بإرادة المصلى ولا برغبته وميوله ولا بالوقت الذى يريده إذا كانت الصلاة مفروضة واجبة[٩] وللصلوات شكل معين معلوم وإن لم يعينه القرآن إلا أنه معين باتفاق الصحابة والمذاهب الإسلامية عليه .

ثم إن الصلوات اليومية الخمس تؤدى فى أوقات معينة معلومة لا يمكن المصلى أن يتخطاها وإلا اعتبر مقصراً وأصبحت صلاته باطلة . وأما الدعاء فإنه يكون فى أى وقت كان وفى أى صورة يريدها المتضرع ؛ فهو لا يتقيد بقيود ولا يتعين بشكل خاص ولا يكون فى الصلاة إلا فى مواضع معينة مخصوصة .

---

(١) قرآن الكريم .
(٢) الاسلام ص ٢٤٠ .
(٣) الاسلام ص ٢٤٠ .
(٤) الاسلام ص ٢٤٠ mittwocb. P, 5. .
(٥) الشيرازى تنبيه طبعة (Juynball) ص٥٠ر٥ .
(٦) راجع الكتب التى أرسلها الرسول إلى القبائل العربية بعد إسلامها m·ttwocb. P, 5. .
(٧) فى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزبيدى ج ١ ص ١٣ « شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً رسول الله وإقام صلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس » وفى ج ١ ص ٨ « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان » .
(٨) القاموس ج ص ٣٥٣ . المصباح المنير ج ١ ص ٥٣ . المطبعة الأميرية بمصر ١٩١٠
(٩) mitiwocb. P, 6. .

وكلمة « صلاة » آرامية فى الأصل ثم استعملها اليهود فأصبحت لفظة آرامية عبرية[١] دخلت اللغة العربية عن طريق اليهود أو المسيحيين[٢]. استخدم اليهود هذه الكلمة (صلوته) (Salûte) فى الأزمنة المتأخرة من عهد التوراة حتى أصبحت كلمة مألوفة ذات معنى دينى خاص[٣]. وفى القاموس «والصلوات كنائس اليهود وأصله بالعبرانية صلوته »[٤] ومن جملة الصلاة «الدعاء» إلا أن «الدعاء» فى الاسلام هو الابتهال إلى الله بالسؤال والرغبة فيما عنده من خير . ويقابل لذلك فى العبرية كلمة « تحنونيم » ومعناها التضرعات والدعاء ! وأما الصلاة التى هى ركوع وسجود فإنها تقابل لفظة «تفلوت» التى تعنى صلوات[٥] قبل أن تخصص الصلاة عند اليهود بكلمة « صلوته » الآرامية فى عهود التوراة المتأخرة[٦] .

والذى لاحظه المتتبعون أن الشعوب القديمة حتى البربرية منها كانت تقوم بفروض دينية يصح أن نطلق عليها لفظة «صلاة»[٧] ومن بين ما عثر عليه المنقبون بعض النصوص القديمة التى كان يقرؤها الأشوريون والبابليون فى الصلاة[٨] . والصلاة عادة طقوس خاصة وشرائط لابد منها ؛ وبدون هذه الشروط تكون الصلاة باطلة غير مقبولة مثل ضرورة الغسل وشروط الملابس والبخور والوضع فى المعبد وما يجب على المرء أن يقوم به أثناء الصلاة وهى تختلف باختلاف الأمم وعقليات الشعوب .

وقد لعبت الصلاة فى العصور الوثنية دوراً هاماً . اعتقد الوثنيون أن المرء متى أحسن أداء الصلاة وقرأ النصوص التى لابد منها كما هى مكتوبة وقام بجميع أركان الصلاة وناجى آلهته فى صلاته بأسمائها الصحيحة فإن الآلهة تلبى طلب المصلى لا محالة وتجبر على إجابة رغباته حتماً[٩] .

---

(١) mittwoch. P, 6. .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر أيضا بحث المستشرق كولدزهير بعنوان دراسات إسلامية ج ١ ص ٣٥ .
( ) القاموس ج٤ ص ٣٥٣ .
(٥) mittwoch. P, 6. .
(٦) نفس المصدر .
(٧) راجع Encyclopeledia Britanicta art Prayer .
(٨) The Religions of the East P, 17 .
(٩) The old Persian Religion. 1920 P. 22 .

وفى استطاعة المصلى أيضاً إذا ما كرر الكلمات المقدسة فى صلاته طرد الأرواح الخبيثة والعوالم الشريرة عنه بل وفى المصلى استخدام الأرواح العليا لقضاء مصالحه وطلباته ولتنفيذ رغباته فيما إذا أحسن المصلى أداء الصلاة . جاء فى ياسنا من دين زرادشت «وبواسطة صلاتى هذه يا مزدا (Manydáh) أرجو منك طرد الأرواح الشريرة والخبائث »[1] .

ومن الأمور التى تهتم بها الشعوب فى صلاتها مسألة عدد الصلوات اللازمة على كل إنسان وتعيين أوقات الصلاة بالضبط ليتسنى لكل مؤمن أداء الفرائض فى أوقاتها ومواقيتها . وقضية الوقت هى قضية مهمة جداً فإن لم تعين أوقات الصلاة وتضبط التبس الأمر على المؤمن وحار ، لذلك ارتبطت مواعيد الصلاة بالصلاة مذ صلى الإنسان الأول . وبالنظر إلى عدم معرفة الإنسان طريقة فنية لضبط الأوقات ، وبالنظر إلى عقيدة تقديس الأجرام السماوية والانصراف إلى عبادتها ربط الإنسان أوقات صلاته بأوقات ظهور الأجرام السماوية ؛ ولا سيما الكبيرة منها ، وأعنى بذلك الشمس والقمر ؛ لأن عقلية الإنسان الابتدائى تميز هذين الجرمين لكبرهما عن الأجرام الأخرى بسهولة ، ولذلك كان الشروق والغروب ووقت الزوال أحيانا من أوقات الصلاة المفروضة لدى غالبية الأمم والقبائل والشعوب [2] .

وحتمت الديانات الآرية القديمة والسامية منذ أقدم الأزمنة على الإنسان الصلاة فى أوقاتها ، فمن الواجبات الدينية على كل رجل من أتباع زردشت بلغ سن التكليف الدينى[3] أن يصلى ثلاث مرات فى اليوم صباحاً وعصراً ووقت العشاء (المغرب) وعليه فضلا عن ذلك صلاة (Ashewvohu) وهى الصلاة التى يجب على كل رجل أداؤها حين ذهابه إلى الفراش لأجل النوم ، وبعد نهوضه من النوم مباشرة[4] .

(البقية فى العدد القادم) **جواد على**

(١) راجع Persian. Religèan P, 23 .

(٢) راجع الكتب المؤلفة فى تاريخ الأديان Yasna. 33,4 .

(٣) The ald Persiau Religian. P, 124 nirangastau 31, . ويقبل الفرس اليوم الطفل الفارسى فى المجمع الدينى متى بلغ السابعة من العمر . راجع Zend. av 2. 243 .

(٤) Shâyast 7. 1. The old Pers Rel P, 124

٣ – حول انهيار فرنسا

لأستاذ عربي كبير

تتمة ما نشر في العددين السابقين

هذا ، وفي آخر الأمر يجب علينا أن نشير – حينما نبحث عن أسباب انهيار فرنسا – إلى سبب آخر ، سبب يجب أن يعطى الموقع الأول بين سلسلة الأسباب ، بل يجب أن يعتبر السبب الأصلي ، بل هو علة العلل ...

هذا السبب هو علائم بلبلة الآراء وفوضى النزعات التي كانت تسود فرنسا إزاء مظاهر وحدة الكلمة وتراص الصفوف التي كانت تميز ألمانيا ...

لقد دخلت ألمانيا الحرب ، وهي متحدة الكلمة ، تسير وراء زعيم واحد تثق به ثقة لا حد لها ، وتتجه نحو هدف عام يعرفه الكل ويقدسه الجميع ... في حين أن فرنسا كانت منقسمة على نفسها في معظم أمورها ، وقد بلغت فيها الشهوات الحزبية درجة تكاد تتغلب على الفكرة الوطنية ، وتعددت الأحزاب تعدداً لا مثيل له في التاريخ ، فلم يبق حزب قوي يستطيع أن يضمن الأكثرية ويدعم الحكومة ، حتى بالاتفاق مع حزب ثان ، فأصبح من المحتم على كل حكومة تسعى إلى تسيير دفة الأمور أن تتفنن في إجراء ترتيبات معقدة بين عدة أحزاب متخالفة...

وبما أن مثل هذه الترتيبات المعقدة تكون عرضة للتغيير السريع بتقلب الظروف ، أصبح التوازن الحكومي شبيهاً بالأعمال البهلوانية التي يقوم بها اللاعبون على الحبال

ولا حاجة لبيان أن تعدد الأحزاب وتنازعها على هذا الوجه كان يفسح مجالا واسعاً لدسائس النفعيين ، ويزعزع ثقة الشعب بالحكومات ويسيء إلى سمعتها إلى حد كبير

وإذا كان تسيير دفة الشؤون بين هذه النزعات المتخالفة من الأمور الممكنة في الأحوال الاعتيادية فلا شك في أنه يصبح من رابع المستحيلات خلال الأزمات الحربية ، لأن الحرب تحتاج إلى أعمال منسقة تنسيقاً تاماً ، ولا سيما في هذا العهد الذي أصبحت فيه الأعمال الحربية غير مقتصرة على الجيوش المحاربة وحدها وغير منحصرة في ساحات القتال وحدها ، بل شاملة جميع أبناء الوطن وجميع أقسام البلاد ... فالبلبلة في الآراء والفوضى في الأعمال من الأمور التي لا يمكن أن تلتئم مع ضرورات الحرب بوجه من الوجوه ، فإذا أقدمت أمة ما على الحرب وهي مبلبلة الآراء ، فلا بد من أن تتعرض إلى كوارث ونكبات

وهذا ما حدث فعلا في فرنسا ، لأن البلبلة التي كانت تضطرب في نفوس أبنائها حين بدء الحرب ، ازدادت يوماً فيوماً من جراء سير الوقائع من جهة وبتأثير إذاعات الألمان من جهة أخرى ، ولا شك في أنها كانت علة العلل في أمر الانهيار

* * *

وهنا مسألة هامة تتطلب التفكير والاهتمام :

إن تعدد الأحزاب وبلبلة الآراء لم تكن من الأمور الشاذة في فرنسا ، بل هي من الأمراض الاجتماعية المزمنة التي كانت تنخر عظم فرنسا منذ مدة غير يسيرة ، ومع هذا فأنها لم تؤد في الماضي إلى انكسار وانهيار ، لأن الأحزاب كانت تنبذ عادة منازعاتها عندما تشعر بالخطر الخارجي ، وتسرع إلى الاتحاد والتكتل عند ما يدعوها إلى ذلك داعي الوطن ، كما حدث فعلا في الحرب العالمية

فلما ذا لم يحدث مثل ذلك في هذه المرة ؟ لما ذا لم تتحد الأحزاب أمام الخطر الهائل الذي أحدق بفرنسا منذ نشوء الحرب الحالية ؟

لا شك في أن ذلك لا يمكن أن يعلل إلا بأن نقول : إن داء الحزبية كان قد اشتد إلى درجة أصبح معها لا يتأثر من ضرورات الحرب ، وإن روح الفردية كانت قد قويت إلى درجة تحولت معها إلى أنانية مفرطة تتغلب على الروح الاجتماعية والروح الوطنية .

غير أن هذا التعليل لا يحل المسألة حلا مرضياً ، فيجب علينا أن نتساءل بعد هذا التعليل أيضاً : لما ذا اشتدت روح الحزبية إلى هذه الدرجة ، ولما ذا تقوت فكرة الفردية إلى هذا الحد ؟

إنني أعتقد أن الدعايات الشديدة المستمرة التي قامت في طول فرنسا وعرضها منذ سنوات ضد النظام النازي والفاشي لم تخل من التأثير الشديد في هذا الباب . إن تلك الدعايات كانت تستهدف – في حقيقة الأمر – تبغيض ألمانيا وإيطاليا ، غير

أنها كانت تهاجم قبل كل شيء النظام الجديد الذي اختارته لنفسها كل واحدة من هاتين الدولتين مهاجمة عنيفة ، وذلك من وجهة تأثيرها على الحرية الفردية في الدرجة الأولى ، ولذلك أخذت الدعايات المذكورة تستمد قوتها من (فكرة الحرية) و (نزعة الفردانية) المنتشرة في البلاد ، فصارت تزدري حتى بـ (روح التكاتف والتراص) و (دعوة التوحد والتضحية) التي يتضمنها هذان النظامان ، فإن الكتاب والخطباء كما أرادوا تزييف النازية ومهاجمتها لوحوا أمامها بعلم « الحرية المطلقة والفردية التامة » دون أن ينتبهوا إلى التأثيرات والأضرار التي قد يحدثها ذلك في داخلية البلاد ونفسية الناس . على هذا الوجه تقوّى الداء وتأصل ، وصار الناس يمجدون « الحرية » تمجيداً مطلقاً ولو أدت إلى الفوضى ، وينفرون من (التوحد) ولو أصبح ضرورياً لحياة الأمة ، ويسترسلون في (الفردية) ولو تحولت إلى أنانية فتاكة ... وفي الواقع أن مخاطر هذه الأمور لم تبق خافية على انظار جميع الفرنسيين بطبيعة الحال ؛ فقد ظهر بين رجال الفكر والسياسة من شمّر بالأخطار التي ستنجم عن استمرار هذه الأحوال ، ومن أخذ يعارض الإفراط في فكرة الحرية فيدعو إلى جمع الصفوف وتوحيد الكلمة ، حتى ظهر من يحمل بعض الحملات على روح الفردية والأنانية ... غير أن الدعايات التي ذكرناها آنفاً ، كانت أثرت في النفوس تأثيراً عميقاً حتى صار الناس ينظرون إلى كل محاولة من هذا القبيل كضرب من ضروب النازية أو الفاشية ، كما أخذوا يتهمون معتنقي مثل هذه الآراء بخدمة الأعداء وخيانة الوطن

وعبثاً حاول بعض الكتاب والمفكرين أن يرشدوا الناس إلى سواء السبيل بقولهم : « يجب أن نكره النازية من حيث سياستها الخارجية وحدها ، ولم يشمل كرهنا لها جميع أعمالها وجميع خصائصها ... ومهما كرهنا النازية من وجهة سياستها الخارجية فيجب ألا ننكر بأنها قامت بأعمال هامة في سبيل الإصلاحات الداخلية والتنظيمات الشعبية ، وإن بعض تلك الأعمال الداخلية جدير بالإعجاب وحرى بالاقتداء ... » غير أن أصوات هؤلاء المفكرين ضاعت بين صرخات الصارخين الذين ظلوا يهاجمون النازية من جميع الوجوه باسم الحرية ... ويستخفون بجميع مبادئها وأعمالها باسم الفردية ...

ولذلك استمرت في فرنسا الأمراض والنزعات السياسية والأخلاقية النفسية التي شرحناها آنفاً ، خلال الحرب أيضاً ... ولا شك في أن هذا الاستمرار كان أهم الأسباب التي أدت إلى الانهيار .

* * *

ومن الغريب أن دعايات « الحرية والفردية » المفرطة التي كانت انتشرت في فرنسا فأدت بها إلى الانهيار كما اسلفنا أثرت تأثيراً عميقاً في آراء عدد غير قليل من كتاب العرب . فراح بعضهم يردد تلك الدعايات بحماس شديد ، حتى بعد ظهور أضرارها الفادحة للعيان في الويلات والنكبات التي جرتها على فرنسا نفسها ...

فقد نشر أحد الكتاب المشهورين[1] ، في إحدى المجلات المصرية الشهيرة ، سلسلة مقالات حول فرنسا ، بعد انهيارها ، أبدى فيها من الآراء ما يستوقف النظر ويتطلب النقاش ...

فقد وصف الكاتب المحترم ، في مقالاته هذه « الحالة النفسية التي كانت وصلت إليها فرنسا قبل الحرب الحالية بكلمات صريحة » فكتب — في جملة ما كتبه في الأقسام المختلفة من مقالاته المذكورة — الكلمات التالية :

« كانت شهوة السياسة الحزبية في فرنسا أقوى من الفكرة الوطنية »

« امتلأ الفرنسي بنفسه ، وأصبح الفرد كل شيء ، يؤثر نفسه بكل شيء ، يؤثرها بأعظم حظ ممكن من اللذة ، ويجنبها أعظم حظ ممكن من الألم ... »

« استجاب الفرنسي لداعي العقل الفردي ، أكثر مما استجاب لداعي العقل الاجتماعي » .

« قد رأى الفرنسي أن الحياة لم تمنح للناس ليبذلوها في الجهود المضنية التي تنتهي إلى الفناء ، إنما منحت للناس لتكون عليهم نعمة ليستمتعوا بلذاتها وليتجنبوا آلامها ... »

« فرنسا آثرت نفسها بالعافية واللذة ونعيم الحياة ... »

أنا لا آخذ على نفسي مسؤولية هذه الكلمات القاطعة ، ولا أشترك في إطلاقها وتعميمها على هذا النوال . ومع هذا ، أرى من الضروري أن ننعم النظر فيها قليلا ...

(١) الدكتور طه حسين

إن هذه الصفات الأخلاقية، وهذه النزعات النفسية، هذه الفردية المفرطة التي لا تفكر في شيء غير نفسها. والتي تتجنب الجهود المضنية على اختلاف أنواعها، فتحاول أن تنال أعظم حظ ممكن من اللذة ... والتي تؤثر نفسها على الدوام بالعافية واللذة ونعيم الحياة ... كل من ينعم النظر في هذه الصفات، يضطر إلى التسليم معي بأنها تدل على شيء واحد، هو «التفسخ الأخلاقي» وتؤدي بطبيعة الحال إلى نتيجة واحدة، هي «الانحلال الاجتماعي» ...

غير أن الكاتب المحترم، لا يقول بذلك، بل بالعكس يرى في كل هذه الصفات والحالات أثراً من آثار التحضر والتثقف، ونتيجة من نتائج الأمعان في الحضارة والثقافة. إنه يعلل كل واحدة منها بقوله: «إن الفرنسي قد تحضر وأمعن في الحضارة» و«ومضت فرنسا في الحضارة إلى أقصى غاياتها» ويكرر ذلك مرات عديدة؛ ويعتبر كل ذلك من نتائج «الحضارة والثقافة» الطبيعية، حتى إنه يقول بكل صراحة ما يأتي:

«إن أية أمة من الأمم تبلغ من الثقافة ما بلغته فرنسا وتسلك بالثقافة الطريق التي سلكتها فرنسا منتهية من غير شك إلى مثل ما انتهت إليه فرنسا ...

ويزيد على ذلك قائلا. «نحن بين طريقين» إما أن نستقبل الثقافة أحراراً (يريد مثل ما تفعل فرنسا) وإما أن نستقبلها مقيدين (يريد مثل ما تفعل ألمانيا) كما يقول أخيراً «أما أنا فاختار الطريق الأولى وأقبل أن أتعرض لما تتعرض له الأمم الحرة من ألوان الخير والشر ومن اختلاف الخطوب» ويعلل اختياره هذا بنزوعه إلى الحرية حيث يقول: «إن الحياة الحرة ... خليقة بأن نشتريها بأغلى الأثمان» ...

أنا لا أستطيع أن أشارك الكاتب المحترم في آرائه هذه ... ولا أسلم بأن الأحوال والصفات التي ذكرها «نتيجة طبيعية» للأمعان في الحضارة والثقافة، كما لا أسلم بصحة رأيه في انحصار الأمر بين طريقين لا ثالث لهما؛ غير أن حديثي قد طال

ولكن من الضروري ألا أنهي حديثي دون أن أناقش الكاتب المحترم قليلا في كلمته الأخيرة.

«إن الحياة الحرة ... خليقة أن تشترى بأغلى الأثمان ...»؛ إن سياق الكلام — في المقالات المذكورة — يدل دلالة صريحة على أن التمني هنا هو «كيان الدولة» و «حياة المجتمع» ...

فهل يجب علينا أن نسلم بهذا القول؟ هل يجوز لنا أن نقدم «الحياة الحرة» على كيان الدولة «وعلى مصالح المجتمع الحيوية»؟

وهل يمكننا أن نضحي «الحياة الحرة» بتضحية حياة الدولة وكيانها؟ ...

أنا لا أرى لزوماً لإطالة الحديث في الإجابة على هذه الأسئلة، ومع هذا أرى من المفيد أن أذكر كلمة قالها قبل الحرب العالمية أحد عظماء السياسة في فرنسا، وكلمة أخرى كتبها أحد كبار الأدباء ...

في عهد وزارة بريان استعد الاشتراكيون لحمل الناس على إضراب عام يشمل عمال وموظفي السكك الحديدية، ليشلوا جميع الأعمال والحركات في طول البلاد وعرضها. فلما اطلعت الحكومة على أخبار هذه الاستعدادات اعتقدت بأن ذلك قد يؤدي إلى كارثة كبرى، نظراً لما كانت تعرفه عن استعداد ألمانيا نظراً لاحتمال إقدامها على انتهاز فرصة هذا الاضطراب العام للاستيلاء على البلاد استيلاء فجائياً ... فقررت الحكومة الفرنسية أن تتخذ تدبيراً حاسما في هذا المضمار، والتجأت إلى طريقة التجنيد. جندت عمال السكك الحديدية قبل يوم الإضراب، وأمرتهم بتسيير القطارات بصفتهم جنوداً وضباطا. ومن المعلوم أن العامل حر في العمل أو الإضراب غير أنه يفقد هذه الحرية — بطبيعة الحال — عند ما يصبح جندياً ... وبهذا التدبير استطاعت الحكومة أن تفسد على الاشتراكيين ترتيباتهم في هذا الباب وأن تحول دون تحقيق الإضراب العام الذي كانوا يستعدون له منذ مدة.

هذا التدبير سبب هياجا عظيما على الحكومة، فأخذ المعارضون يقولون هذا إخلال بأحكام الدستور، وإنه تعد على حق الحرية .. غير أن رئيس الحكومة رد على هذه الاعتراضات قائلا: «إن العمل الذي قمت به لا يخالف الدستور ولا يكون تعدياً على حرية الأفراد .. ومع هذا أود أن أصرح من على هذا المنبر بأنني لو

كنت أعلم بأنه مخالف للدستور ولحق الحرية .. لما أحجمت عن القيام به .. لأنني أعتقد أن حياة فرنسا أغلى من الدستور ، وأثمن من حرية الأفراد ... »

إن ساسة فرنسا الذين كانوا يحملون مثل هذا الاعتقاد قادوا بلادهم إلى النصر فى الحرب العالمية المنصرمة .. وأما رجال فرنسا الجدد الذين فقدوا هـذا الاعتقاد وصاروا يعتبرون هذه الأعمال ضرباً من ضروب النازية ... فقد أوصلوا بلادهم إلى وادى الاندحار ...

هذا وأذكر أننى حضرت رواية فى باريس قبيل الحرب العالمية عنوانها (الغرب) يصور فيها مؤلفها ضابطا من كبار ضباط البحرية الفرنسية يعيش مع راقصـة مغربية تنحدر من عشيرة مراكشية ، وللضابط أخ شاب مأخوذ بالآراء والنظريات المعارضة للخدمة العسكرية . يفر هـذا الشاب من الجندية ، غير أن أخاه الضابط يتمكن — بعـد سلسلة وقائع — من إقناعه وإعادته إلى حظيرة الخدمة الوطنية . تقف المرأة المغربية دهشة أمام خضوع الشاب لـكلمات أخيه هـذا الخضوع ، فتتساءل : ألم يكن هـذا الشاب حرا ؟ فكيف يخضع لأوامر الضابط كأنه كلب مطوق بالأغلال أو عبد يمتثل أوامر سيده الذى اشتراه بماله الخاص ؟ ؟

أما الضابط فيبتسم لأقوال خليلته المغربية ، وعند ما يختلى بها يقول لها ما مؤداه « إن الحرية فى نظرنا نحن الغربيين ، هى غير الحرية التى تفهمونها وتطلبونها أنتم الشرقيين . الحرية فى نظركم هى أن يرتدى المرء برنسه ويعتلى صهوة جواده فينطلق فى الصحراء حيث شاء ... أما نحن فلا نطلب حرية مثل تلك الحرية ، فإن كلاًّ منـا يحمل فى عنقه أغلالا وأصفادا ... أغلالا وأصفادا مصنوعة من ذهب معنوى ... من ذهب المنمنات والتاريخ والواجبات ... نحن نحب تلك الأصفاد بكل جوانحنا ، ونحمل تلك الأغلال بكل سرور ... نحن نبجل تلك الأصفاد والأغلال ، بل نقدسها كل التقديس ... » .

إن الجيل الذى يقول مثل هـذه الأقوال قد قاد فرنسا إلى المجد والنصر ، وإن الجيل الذى عدل عن تقديس الأغلال الاجتماعية فأخذ يتمسك بالحرية المطلقه ... الجيل الذى ترك التساند الاجتماعى جانبا ، فأخذ يقدس تلك الفردية ... هذا الجيل ... قد أوصل فرنسا إلى هذه النكبات ...

إننى أعتقد أن هذه النتيجة يجب أن تكون درساً ثميناً لجميع شبان العرب ...

فأنا أود أن يعرف الكل أن الحرية لم تكن غاية قائمة بنفسها ، بل هى واسطة من وسائط الحياة العالية ... والمصالح الوطنية التى تتطلب من المرء أحياناً تضحية الحرية أيضاً فى بعض الظروف ...

إن كل من لا يضحى بحريته الشخصية فى سبيل حرية أمته — عند ما تقتضيه الحال — قد يفقد حريته الشخصية مع حرية قومه ووطنه ...

وكل من لا يرضى أن (يفنى) نفسه فى الأمة التى ينتسب اليها — فى بعض الأحوال — قد يضطر إلى « الفناء » فى أمة من الأمم الأجنبية التى قد تستولى على وطنه فى يوم من الأيام ...

ولذلك فأننى أقول بلا تردد وعلى الدوام ...

الوطنية والقومية قبل كل شىء ، وفوق كل شىء ...

حتى فوق الحرية ، وقبل الحرية ...

(س)

لزوم مــــا لا يلزم

متى نُظم وكيف نُظم ورُتب ؟

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

كانت أمور الشام ولا سيما البلاد الشمالية فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس مضطربة بين سلطان الفاطميين والأمراء المتغلبين من بنى حمدان ومواليهم ومن رؤساء القبائل العربية . وقد استولى صالح بن مرداس الكلابى صاحب الرَّحبة على حلب فى هذا الاضطراب سنة ٤٠٢ . ثم وقعت خطوب رَدَّت حلب إلى سلطان الفاطميين حيناً . فلما قتل نائب الفاطميين عزيز الدولة سنة ٤١٢ ، وتولى من قِبَلهم ابن شعبان طمع صالح ابن مرداس فى التغلب على نوّاب الفاطميين فحالف اثنين من رءوس العرب هما حسّان الطائى وسنان بن عُليان الكلبى واتفقوا على أن يقتسموا الشام من حلب إلى حدود مصر . فصارت حلب وما يليها لصالح ، ودمشق لسنان ، والرملة وما يليها إلى مصر لحسّان . وذلك عام ٤١٤ . وقد تقدمت أبيات المعرى التى تذكر هذا التقسيم .

هذه حوادث وقع بعضها فى العَقد الأول من القرن الخامس ومعظمها فى العَقد الثانى . فهذه الأبيات قد نظمت كذلك فى هذين العقدين ولا سيما الثانى منهما .

ثانياً — يُذكر صالح بن مرداس فى اللزوميات مرات أُخر لحادث آخر كان له فى نفس المعرى أثر باق .

نقل ياقوت عن أبى غالب بن مهذب المعرى فى حوادث سنة ٤١٧ من تاريخه : « صاحت امرأة يوم الجمعة فى جامع المعرة وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغتصبها نفسها . فنفر كل من فى الجامع وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه . وكان أسد الدولة (صالح) فى نواحى صيدا فوصل الأمير أسد الدولة فاعتقل من أعيانها سبعين رجلا . وذلك برأى وزيره تادرس بن الحسن الأستاذ . وأوهمه أن فى ذلك إقامة للهيبة — قال ولقد بلغنى أنه دُعِى لهؤلاء المتقلين بآمد وميّافارقين على المنابر — وقطع تادرس عليهم ألف دينار . وخرج الشيخ أبو العلاء المعرى إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة وقال له : مولانا السيد الأجلّ أسد الدولة ومقدّمها وناصحها كالنهار الماتع اشتد هجيره وطاب بَرداه ، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حدّاه . خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين .

فقال صالح قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قُطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه » .

ونقل ياقوت أيضاً عن القِفطى أنه وجد على ظهر ديوان الأعشى فى مدينة قفط سنة ٥٨٩ ما يأتى : « حكى أن صالح ابن مرداس صاحب حلب نزل على معرة النعمان محاصراً لها ونصب عليها المجانيق واشتد فى الحصار لأهلها فجاء أهل المدينة إلى الشيخ أبى العلاء لعجزهم عن مقاومته لأنه جاءهم بما لا قبل لهم به وسألوا أبا العلاء تلافى الأمر بالخروج إليه بنفسه وتدبير الأمر برأيه إمّا بأموال يبذلونها أو طاعة يعطونها . فخرج ويده فى يد قائده وفتح الناس له باباً من أبواب معرة النعمان ، وخرج منه شيخ قصير يقوده رجل . فقال صالح هو أبو العلاء فجيئونى به . فلما مثل بين يديه سلّم عليه ثم قال : الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع الخ » .

وهذه الحادثة ذكرها المعرّى فى موضعين من اللزوميات فى حرف الدال المكسورة واللام المكسورة . يقول :

تغيّبت فى منزلى بُرهة ستيرَ العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقلّ وحُمّ لروحى فراقُ الجسد
بُعثتُ شفيعاً إلى صالح وذاكَ من القوم رأى فسد
فيسمع منّى سجع الحمام وأسمعُ منه زئير الأسد
فلا يعجبنّى هذا النّفاق فكم نفّقت محنة ما كسد

ويقول :

آليت أرغب فى قميص مموّه فأكون شارب حنظل من حنظل
نجّى المعاشر من براثن صالح ربٌّ يفرّج كل أمر مُعضل
ماكان لى فيها جناحُ بعوضة والله ألبسهم جناحَ تفضّل

فهاتان القطعتان نظمتا فى حادث وقع سنة سبع عشرة وأربعمائة . والظن أن نظمهما لم يتأخر عن هذا التاريخ كثيراً .

ثالثاً — يذكر الشاعر « محموداً » فى مواضع كثيرة . يقول :

يســـلك محمود وأمثاله طريق خاقان وكنداج

* * *

أُسَرُّ إن كنتُ محموداً على خلُق
ولا أُسرُّ بأنى المَلك محمود

ما يقنع الرأس بالتيجان يعقدها
وإنما هو بعد الموت جُلمود

* * *

لا كانت الدنيا فليس يسرّنى   أنى خليفتها ولا محمودها

* * *

سيموت محمود ويهلك آلك   ويدوم وجه الواحد الخلاّق
فمن مُبلغ عنى المآلك معشرا   علياً ومحموداً وخانا وآلكا
فما أتمّنى أننى كأجلّكم
ولكن أضاهى المقترين الصعالكا

وكلمة آلك فيما أظن، يريد بها المعرى أِلك خان وهو لقب لبعض ملوك تركستان الذين قامت لهم دولة بين سنة ٣٢٠ وسنة ٦٠٩، والظاهر أن أول من لقب منهم أِلك خان هو نصر بن على فاتح ما وراء النهر المتوفى سنة ٤٠٣. فهذا دليل على أن هذه الأبيات نظمت بعد هذا التاريخ. وأما علىّ المذكور فى البيت فلم أعرف من هو إلا أن يكون علياً أسد الدولة أحد أمراء بنى مزيد تولى الملك من سنة ٤٠٣ إلى سنة ٤٠٨.

ومن محمود الذى كرر المعرى ذكره وجعله مثلا فى الملوك وقال إنه لا يسرّه أن يكون فى منزلته، وإن الدهر سيبطش به كما بطش بالضعفاء؟

فى تعليقات الطبعة المصرية أنه أمير المعرة إذ ذاك. ولا نعرف من تولى فى تلك النواحى ذلك العصر إلا محموداً حفيد صالح ابن مرداس. ومحمود هذا تولى الإمارة سنة ٤٥٢ وخلع فى السنة التالية، ثم تأمر مرة أخرى سنة ٤٥٤، فدامت له الإمارة حتى سنة ٤٦٨. فقد تولى بعد وفاة المعرى.

ولا أدرى لماذا أثبت الشيخ الميمنى البيت الأول: «يسلك محمود ... الخ» أولَ فصل من كتابه عن المعرّى عنوانه: «هو ووزير محمود بن نصر بن صالح». نقل فى هذا الفصل ما يقال عن تدبير محمود هذا لقتل المعرى وخلاص المعرى بالدعاء. وهى خرافة مَروِيّة نفاها الشيخ الميمنى وقال إنْ محموداً تولى بعد وفاة المعرى كما قلتُ. فهل الميمنى، مع نفيه هذه الخرافة، يظن أن محموداً الذى فى البيت هو حفيد صالح ذكره المعرّى قبل تولّيه الملك؟ لا أدرى لماذا أثبت هذا البيت فى فاتحة هذا الفصل.

والذى أراه أن محموداً الذى أكثر المعرى ذكره هو سلطان ذاع صيته فى ذلك العصر وضرب المثل بقدرته وغناه، هو يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين فاتح الهند. ولهذا قرنه المعرى بالخليفة فى البيت:

لا كانت الدنيا فليس يسرنى   أنى خليفتها ولا محمودها

والسلطان محمود تولى من سنة ٣٨٧ إلى سنة ٤٢١. فهذه الأبيات التى تضمنت اسمه نظمت قبل سنة ٤٢١ ولا ريب؛ لأن المعرى يذكره ذكر الأحياء، ويقول: سيموت محمود... الخ».

ويؤكد ما رأيته فى محمود هذا أن الشاعر يقول فى اللزوميات أيضاً:

محمودنا الله والمسعود خائفه   فعدّ عن ذكر محمود ومسعود
ملكان لو أننى خيّرت مُلكهما
وعُود صَلب أشار العقل بالعود

ومسعود هو ابن السلطان محمود استقر له الملك سنة ٤٢١ بعد أن ظفر بأخيه محمد. وبقى له السلطان حتى سنة ٤٣٢. وأما السلطان محمود السلجوقى وأخوه مسعود فقد ملكا فى القرن السادس الهجرى.

رابعاً — كان أبو القاسم المغربى الوزير ممن أقام بالمعرة، وكان يوادّ المعرى ويراسله، وكان المعرى يحفظ له ولأبيه من قبلُ أياديه. فلما توفى رثاه بأبيات مثبتة فى اللزوميات. ولا أعرف فيها رثاء لغيره أو مدحا صريحاً.

ليس يبقى الضرب الطويل على الدهـ
ـر ولا ذو العَبالة الدِرحايه
يا أبا القاسم الوزير ترحّلـ
ـت وخلّفتنى ثِقال رَحايه
وتركت الكتب الثمينة للنا   س وما رحت عنهمُ بسَحايه
ليتنى كنت قبل أن تشرب المو   ت أصيلاً شربتُه بضُحايه
إن نحتْك المنون قبلى فإنى   منتحاها وإنها منتحايه
أمْ دَفْر تقول بعدك للذا   ئق لا طعم لى فأين نَحايه
إن يَخُط الذنبَ اليسير حفيظا
ك فكم من فضيلة محّايه

وهذا الوزير توفى سنة ٤١٨. فهذه القطعة نظمت فى هذه السنة.

خامساً — يقول المعرى:

ألم ترني وجميع الأنام في دولة الكذب الذائل
مضى قَيلُ مصر إلى ربّه وخلّى السياسة للخاتل
وقالوا يعود فقلنا يجوز بقدرة خالقنا الآئل
إذا هبّ زيد إلى طيّئ وقام كليب إلى وائل

أظن أن قَيل مصر المعنيّ في هذا البيت هو الحاكم بأمر الله الفاطميّ، فهو الذي انتظر بعض الناس عودته. والحاكم هلك سنة ٤١١ . فالظاهر أن هذه الأبيات نظمت قريباً من هذا التاريخ .

(ب) سن المعري في اللزوميات :

يذكر المعري سنّه في اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ؛ تارة يقول بلغت كذا أو جاوزت كذا ، وتارة يقول : إذا بلغ الإنسان كذا آن له أن يرعوي أو حان له أن يهلك . وقد عَبرت اللزوميات مستقصياً الأبيات التي يذكر فيها سنّه ؛ فإذا هو يذكر الأربعين مراراً ويذكر الخمسين كثيراً ولا يذكر ما دون الأربعين إلا مرة واحدة قدمت الكلام فيها ، ويذكر السبعين مرة سأثبتها من بعد .

يقول في الهمزية التي افتتح بها اللزوميات :

إذا ما خبت نار الشبيبة ساءني ولو نُصّ لي بين النجوم خِباء
أرابيك في الودّ الذي قد بذلته فأُضعِف إن أجدى لديك رباء
وما بعد مرّ الخمس عشرة من صبا ولا بعد مرّ الأربعين صَباء

* * *

ويقول :

خَبَر الحياة شرورها وسرورَها من عاش مدة أول المتقارب
وافى بذلك أربعين فما له عذر إذا أمسى قليل تجارب

. . .

ومتى سرى عن أربعين حليفها فالشخص يصغر والحوادث تكبر

. . .

ورميت أعوامي ورائي مثل ما رمت المطيُّ مهامه السُّفّار
وركبت منها أربعين مطيّة لم تخلُ من عَنَت وسوء نِفار

. . .

شربت سِنيّ الأربعين تجرّعاً فيا مَقِراً ما شُربه في ناجع

ويجوز أن تدل هذه القطعة أنه بلغ ثمانياً وأربعين :

عش يا ابن آدم عدة الوزن الذي يُدعى الطويلَ ولا تجاوز ذلكا
فإذا بلغت وأربعين ثمانيا فحياة مثلك أن يوسَّد هالكا

وأما ذكر الخمسين فأكثر وأصرح :

حياتي بعد الأربعين منيّة ووجدان حِلف الأربعين فقود
فمالي وقد أدركت خمسة أعقُد أبيني وبين الحادثات عقود ؟
إذا كنتُ قد جاوزت خمسين حجة ولم ألق خُسرا فالمنيّة لي سِتر
وما أتوقّى ، والخطوب كثيرة ، من الدهر إلا أن يحلّ بي الهتر

. . .

إذا طلع الشيب المُلمّ فحيّه ولا ترض للعين الشباب المزوّرا
لقد غاب عن فوديك خمسين حجّة فأهلاً به لما دنا وتسوّرا

. . .

وما العيش إلا لُجّة باطليّة ومن بلغ الخمسين جاوز غمرها

. . .

الخمسين قد أفنيتها ليس نافعي بتأخير يوم أن أعضّ على خمس

. . .

لا خير من بعد خمسين انقضت كَمَلا في أن تمارس أمراضاً وأرعاشا

. . .

خمسون قد عشتها فلا تعش والنعش لفظ من قولك انتعش

. . .

عَلِقتُ بحبل العمر خمسين حجة فقدرتُ حتى كاد ينصرم الحبل

. . .

كأنك بعد خمسين استقلّت لولدك ، البناء دنا ليهوي

وقد ذُكرت الخمسون في ثلاث قطع أخرى ، في حرف الطاء والكاف والميم . ولم تذكر الستون في اللزوميات قط .

وجاء ذكر السبعين في قوله :

من عاش سبعين فهو في نصب وليس في العيش بعدها خِيَره

(يتبع)

عبد الوهاب عزام

الجمال الفني والعقيدة الدينية

في القرآن الكريم

للأستاذ سيد قطب

— ١ —

منذ أسبوعين قرأ الناس في الرسالة « مناقشات » الأستاذ عبد المنعم خلاف حول « التصوير الفني في القرآن » وحول « المنطق الوجداني » كذلك .

وإذا أنا عدت اليوم إلى مناقشة هذه المناقشات ؛ فإنما يدعوني إليها أنها طريقة مضمونة لتوجيه النظر إلى الجمال الفني في القرآن من زاوية لم تعرف قبل الآن . فأنا أزعم أن هذا الجمال قد بقي مجهولا في الغالب ، منذ أن حاول تجليته الإمام « عبد القاهر » فوصل إلى أقصى ما يتيحه له عصره ... ثم لم يتابعه أحد في الطريق الصحيح ، إلا فلتات تقع بين الحين والحين .

وأنا أزعم كذلك أن الأدب العربي لم ينتفع الانتفاع الواجب بكتاب الإسلام المقدس ، كما انتفعت آداب الأمم المسيحية بكتابهم المقدس من الوجهة الفنية ... فكل تجلية لطريقة القرآن الأدبية ولمواضع الجمال فيها على طريقة فنية شاملة إنما هي كسب للأدب العربي — ولو جاء متأخراً جد التأخر عن موعده — وتوسيع لآفاق النظرة الفنية للبلاغة ، واتجاه بها إلى «النقد الفني» الذي كان يجب أن تصير إليــه ، لو لم تركد عند القواعد البلاغية الجافة التي يحا كون إليهـا الجمال الفني في الأدب العربي عامة

* * *

لا يزال الأستاذ عبد المنعم يجادلني حول طريقة التعبير المفضلة في القرآن ، وحول العقيدة بين المنطق والوجدان . فلنتحدث اليوم عن المسألة الأولى . فأنا أزعم أن الطريقة المفضلة هي « التصوير » ويرى هو هذا الزعم مبالغة دعا إليها مجرد الحماس .

وحين أحيله على المصحف لينظر صدق ما أتجه إليه يرى أنني أحيله إلى محال على طريقة « جحا » في عد نجوم السماء !

ولكنه يفتح المصحف هنا وهناك فيجد أمثـلة لا تنطبق عليها القاعدة ، ويرى مواضع للتعبير لا يبرز فيها التصوير . وعندئذ يحا كمني إلى هذه المواضع وإلى أمثالها ... ما دام لا يستطيع أن يسرد « القرآن كله » في مجلة الرسالة للاستشهاد !

وأحسب : أن ليس هكذا تكون مقاييس الفنون !

والذي أفهمه أنا حين أقول عن التصوير في القرآن : « فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة تقع حيثما اتفق . إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة ، وخصيصة شاملة » أو حين أقول : « والأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله حيثما تعرض لغرض من الأغراض التي ذكرنا ... »

الذي أفهمه حين أقول هذا : أن السمة الواضحة التي تحدد « عنوان » الطريقة المتبعة في القرآن هي سمة « التصوير » وأن هذا لا يعني انتفاء نص أو عدة نصوص لا تتضح فيها هذه السمة . إنما الطابع العام هو الذي يعنيني ، وهو الذي يعني كل ناقد ينظر في عمل فني ، فيبحث عن السمات العامة فيه ، ولن يجد من يقول له : إن هنا سطراً أو فقرة أو صفحة لا تتضح فيها هذه السمة . فذلك آخر ما يقال في الحكم على الفنون .

فأما حين نكون في المعمل فنقول إن خصائص « الأكسجين » هي كيت وكيت . فإن لكل باحث أن يقول : نعم أو كلا . إن هناك خصيصة ذكرت خطأ ، أو هناك خصيصة نسيت . فالحكم غير صحيح !

وهذه هي نسخة المصحف التي كانت مرجعي في أثناء تحضير كتابي . تحمل صفحاتها « تأشيراتي » على مواضع التصوير في القرآن . وهأنذا لا أكاد أجد صفحة واحدة خلت من موضع يحمل إشارة إلا أن تكون تشريعاً ... وهذا حسبي لتقرير هذه الحقيقة التي قررتها في كتابي بعد التشبع بطريقة القرآن ، والحياة في جوه أكبر وقت مستطاع .

بل هأنذا أنظر في كلمة الأستاذ عبد المنعم الأولى التي يعدد فيها طرائق التعبير القرآني فيقول : « إني أترك له أن يستعرض صفحات القرآن فسيجد أن التصوير الفني أداة واحدة من أدوات التعبير الكثيرة في القرآن ؛ وليست هي الغالبة ولا الكثيرة (١) فتارة يعبر عن المعنى المراد بالتعبير المتكافئ المعنى واللفظ الذي يستخدم الألفاظ الوضعية وحدها (٢) وتارة يستعير لفظة واحدة من غير أسرة الألفاظ التي في الجملة ليحرك بها الخيال ويلمس الحس لمسا رقيقاً (٣) وتارة تكون ألفاظ الحقيقة

وملابسات الخيال متساوية (٤) وتارة تكون ملابسات التصور وإثارة الخيال هى الغالبة (٥) وتارة تكون هى الكل ... »

فهذه خمس طرائق للتعبير عددها الأستاذ عبد المنعم ... أنظر فأرى أربعاً منها مما أعنيه حين أذكر طريقة التصوير . وواحدة فقط هى التى تسلك الطريقة الذهنية المجردة . وتكملة لهذا البيان أقرر أن هذه الطريقة تكثر فى مواضع التشريع وفى بعض مواضع القرآن لأنها تكاد تطرد فى سائر الأغراض .

أم لعل الأستاذ عبد المنعم لا يرى التصوير إلا فى الطريقة الخامسة وحدها ؟ هكذا فهمت منه حين يقول تعقيباً على النصوص التى استشهد بها فى مقاله الأخير !

« فأين فى هذه الآيات وأمثالها الكثيرة « التصوير الفنى » الذى لفت نظر الأستاذ سيد وأثار خياله حتى وهو طفل بحكيته فى اللوحات ذات الوحدة والتناظر والتمثيل الجامع ذى الظلال والأجواء الشاملة كما يتجلى فى « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ... »

وجوابى على هذا أن هذا اللون « الفاقع » من التصوير ليس من الضرورى أن يتحقق دائماً لنطلق عليه عنوان « التصوير » وإذا كان هذا اللون هو الذى لفت خياله فى الطفولة ، فهذا شأن الطفولة التى لا تلفتها إلا الألوان الزاهية الصارخة . فأما حين تكتمل الحواس الفنية ، فهى خليقة أن تدرك أدق الخطوط وأهدأ الألوان ، وتنفعل بها أشد الانفعال ... وهذا هو الذى كان !

ولكن أكنت أنا مقصراً فى التنبيه إلى ما أعنيه بالتصوير فى القرآن ، وهل تركت مجالا فى كتابى لمثل هذا اللبس !

فلنعد إلى بعض نصوص الكتاب :

جاء فى صفحة ٣٢ من الكتاب ، فى فصل « التصوير الفنى »

« ويجب أن نتوسع فى معنى « التصوير » حتى ندرك آفاق التصوير الفنى فى القرآن . فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة ، وتصوير بالتخيل ؛ كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون فى التمثيل . وكثيراً ما يشترك الوصف ، والحوار ، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، فى إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان ... »

وجاء فى صفحة ٦٠ وما بعدها فى فصل « التخييل الحسى والتجسيم » بعض التطبيق لهذه القواعد :

« لون من ألوان « التخييل » يمكن أن نسميه « التشخيص » يتمثل فى خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، والانفعالات الوجدانية . هذه الحياة قد ترتقى فتصبح حياة إنسانية تشمل المواد والظواهر والانفعالات ، وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين ، وتأخذ منهم وتعطى ، وتتبدى لهم فى شتى الملابسات ، وتجعلهم يحسون الحياة فى كل شىء تقع عليه العين ، أو يتلبس به الحس ، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه فى توفز وحساسية وإرهاف .

« هذا هو الصبح يتنفس . (والصبح إذا تنفس) فيخيل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التى تنفرج عنها ثناياه ، وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط فى الأحياء ، على وجه الأرض والسماء .

« وهذا هو الليل يسرع فى طلب النهار فلا يستطيع له دركا : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة التى لا نهاية لها ولا ابتداء .

« أو هذا هو الليل يسرى : (والليل إذا يسر) فتحس سريانه فى هذا الكون العريض ، وتأنس بهذا السارى على هينة واتئاد .

« وهاتان هما الأرض والسماء عاقلتين يوجه إليهما الخطاب فتسرعان بالجواب : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين) والخيال شاخص إلى الأرض والسماء ، تدعيان وتجيبان الدعاء .

« وهذه هى الأرض « هامدة » مرة و « خاشعة » مرة ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ... »

« ومن « التجسيم » وصف المعنوى بمحسوس كوصف العذاب بأنه غليظ : (ومن ورائهم عذاب غليظ) واليوم بأنه ثقيل : (ويدعون وراءهم يوما ثقيلا) والرياح بأنها لواقح تشبيها لها بالحيوان لما تحمل من مطر (وأرسلنا الرياح لواقح) .

« وضرب الأمثلة على المعنوى بمحسوس كقوله : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) لبيان أن القلب الإنسانى لا يتسع

لانجاهين . ومثل (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها — من بعد قوة — أنكاثا) لبيان العبث فى نقض العهد بعد المعاهدة ... »

وجاء فى ص ٧٤ وما بعدها فى فصل « التناسق الفنى » :

« هناك المواضع التى يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية . وهذه خطوة مشتركة بين التعبير للتعبير ، والتعبير للتصوير ... مثال ذلك : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) . فإن كلمة « الدواب » تطلق عادة على الحيوان — وإن كانت تشمل الإنسان فيما تشمل لأنه يدب على الأرض — ولكن شمولها هذا للانسان ليس هو الذى يتبادر إلى الذهن ، لأن للعادة حكمها فى الاستعمال . فاختيار كلمة « الدواب » هنا تم تجسيم الحالة التى تمنعهم من الانتفاع بالهدى بوصفهم « الصم البكم » كلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية التى يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يؤمنون لأنهم « لا يعقلون » !

* * *

« وقد يستقل لفظ واحد — لا عبارة كاملة — برسم صورة شاخصة — لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة — ... تسمع الأذن كلمة « اثاقلتم » فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل اثّاقلتم إلى الأرض ؟) فيتصور الخيال ذلك الجسم المثّاقل ، ليرفعه الرافعون فى جهد فيسقط من أيديهم فى ثقل . إن فى هذه الكلمة «طنّا» على الأقل من الأثقال!

« وتقرأ : (وإن منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ) فترتسم صورة التبطئة فى جرس العبارة كلها — وفى جرس « ليبطئن » خاصة وإن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها حتى يصل إلى نهايتها »

« وتتلو حكاية قول هود . (قال أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم أنُلْزِمُكُموها وأنتم لها كارهون ؟) فتحس أن كلمة « أنلزمكموها » تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويُشدون إليه وهم منه نافرون ! »

وهكذا ...

وفى هذا الفصل عند استعراض آفاق التناسق الفنى فى القرآن ضربت الأمثلة بالموسيقى التصويرية التى تهيئ الجو العام فى مثل :

« والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى ... »

فهنا إيقاع موسيقى هادئ لطيف يصور الجو العام الذى نعيش فيه معانى السورة . وهو مخالف حتما للايقاع المنبعث من مثل قوله :

« كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفاً صفاً ... »

والموسيقى التصويرية لون من ألوان التصوير الفنى بلا جدال .

* * *

التصوير هو القاعدة العامة فى تعبير القرآن ... أكررها مرة ومرة ، لا إصراراً على قول ، ولكن اقتناعاً بعد درس . وكل ما أطلبه إلى الأستاذ عبد المنعم ألا يحاكمنى فى هذا الرأى إلى نص أو مثال . ولكن إلى سمة غالبة ، وإلى شمول فى معنى التصوير كما بينته فى مواضع متعددة من كتابى . وإنى لأطلب إليه وكتابى بين يديه أن يعود فيقرأه كله ثم يقرأ القرآن !

ويبقى تقويم هذا التصوير ، والأستاذ يقول : « إنما يبنت أننا لو ربطنا بين سر الإعجاز وبين التصوير الفنى وحده نكون قد سوينا بين تعبير القرآن وبين غيره من مواريث أرباب البيان الرفيع فى كل لغة إذ أننا نجد فى مواريثهم استخدام التصوير الفنى ... »

ولست أدرى كيف يقال هذا الكلام بعد ما رددت به على الأستاذ نجيب محفوظ فى تقويم هذا التصوير فى القرآن وفى الشعر عامة ؟

إن العبرة ليست باستخدام التصوير ، ولكن بمستوى هذا التصوير من التناسق والحياة . وقد كشفت فى كتابى فى مواضع كثيرة عن تفرد التصوير القرآنى فى خصائصه فلم يبق مجال لمثل هذا الاعتراض الذى ينطبق على جميع طرائق التعبير لا على طريقة التصوير وحدها . ولا حكم فيه على أى طريقة . لأن السمة شىء ومستواها شىء آخر والسلام .

سيد قطب

نموذج من الشعر المرسل الحر !

للأستاذ علي أحمد باكثير

عجباً كيف لم تعصفْ بالدُّنَى زلزلهْ ؟
كيف لم تهو فوق الورى شُهُبٌ مُرسلهْ ؟
يا لها مهزله !
يا لها سَوءةً مُخجلة !
مثلت دورها أمة تدعى ضلة أنها من كبار الدول
سلمت للمغيرين أوطانها لتوارى في سوريا وفي لبنان الخجل !
أمة ولت من وجه العدو فرارا
من ضربته الأولى انهارت ككثيب الرمل انهيارا !
خاست بمواثيق أحلافها الباسلين
الذين توافوا إلى أرضها منجدين
ثم خرت ساجدة تحت أقدام أعدائها المعتدين

نشرت صحف الدنيا يوماً هذا النبأ التالي :
احتلت جنود فرنسا البواسل (سردينيا)
قالت الدنيا :- يا بطولتها ! يا شجاعتها !
رجعتْ لفرنسا حميتها وتقاليدها العسكريه
فإذا صوت قد علا لا يسمعه إلا المنصفون :
يا أيتها الدنيا هل تدرين أنك مخدوعة ؟
اسألى قبل أن تعجبي : من هم هؤلاء الجنود البواسل ؟
أي شعب أنجبهم ؟
إن لم تعلمي فاعلمي أنهم ليسوا من فرنسا !
إنهم من أبناء (المغرب) الأكرمين
إنهم من نسل العُرْب الميامين !

وروت صحف الدنيا يوماً هذا النبأ التالي :
أبلت في « بئر حكيم » جنود فرنسا بلاء كبيرا
صدت (النازى) فارتد كسيراً حسيرا
قالت الدنيا : يا بطولتها ! يا شجاعتها !
عادت لفرنسا حميتها وتقاليدها العسكريه
فعلا صوت لا يسمعه إلا المنصفون :
يا أيتها الدنيا هل تدرين أنك مخدوعةَ ؟
اسألى قبل أن تعجبي من هم هؤلاء الجنود البواسل ؟
أي شعب أنجبهم ؟
إن لم تعلمي فاعلمي أنهم ليسوا من فرنسا !
إنهم من أبناء (الشام) الأكرمين
إنهم من نسل العُرْب الميامين !

يا فرنسا يا مهد الثورة الكبرى !
يا ناشرة الحرية في الدنيا !
يا من ركعت تحت أقدام المعتدين
وتخلت لأعدائها عن أحلافها الباسلين
وتحرج أبناؤها إشفاقاً على باريس عروس السين
فرأوا أن يزفوها غير ممسوسة لغزاتهم الفاتحين ؟
ما نفع الكرامة في الدنيا إن زالت تلك الفنون الغرائب ؟
إنهم ليسوا بالغلاظ طباعاً كأبناء عاصمة الإنجليز
الذين استماتوا عنها دفاعاً فأضحت أطلالاً وخرائب !

يا فرنسا يا مهد الثورة الكبرى !
يا ناشرة الحرية في الدنيا !
أي حق على قومنا تدعين؟
وبأي جميل علينا تمنين ؟
أبما راج في سوقنا من لسان به ترطنين ؟
وثقافة سوء أذلتك في العالمين !
فاذهبي وتولىْ بها عنا !
قد تبرأنا منها فلتُعلِن براءتها منا !
إنا لا نقبل من أحد عدواناً ومَنّا !
إذهبي عنا بثقافتك الخانعه !
إن في الدنيا غيرها لثقافات حرة واسعه !

ويلها ! أأرادت فرض ثقافتها بالسلاح ؟
فلنحطم ثقافتها والسلاح معا !
ويلها ! أأرادت فرض مصالحها بالسلاح ؟

فلنحطم مصالحها والسلاح معا !
يا لسخرية الأيام !
أشهدنا دولة فى عهد السلام
بالسلاح الذى لم تقاتل به الأعداء
بل ألقت به فى الثرى ساعة الهيجاء
لتصول به وتجول على من أحس لها بالرثاء
وأباح لها فى محنتها من معونته ما تشاء ؟!

فاشهدى يا أيتها الدنيا هذه الدولة الباغيه !
ليت شعرى أقاتلت الدنيا طاغيه
ليقوم على إثره طاغيه ؟
اشهدوا يا من وقعوا ميثاق النور على بحر الظلمات
أننا قد وفينا بالميثاق
إذ قمنا نصون كرامتنا ونصون السلام
لسنا ممن ينقضون العهود !
أو من يؤثرون على حريتهم شيئاً فى الوجود !
لن نسلم « باريسنا » للعدو لنحفظها من أذاه !
بل ندمر « لندننا » باسلين ليبقى لنا حقنا فى الحياة !
فاسمعى أنت يا باريس !
واشهدى أنت يا لندن !

السودان يعزى الشام

للشاعر السودانى الأستاذ أحمد محمد صالح

صبراً دمشق فكل طرف باك … لما استبيح مع الظلام حماك
جزعت عمان وروعت بغدادواه … تزت ربى صنعاء يوم أساك
وقرأت فى الخرطوم آيات الأسى … وسمعت فى الحرمين أنة شاكى
ضربوك لا متعففين سفاهة … لم تأت إثماً يا دمشق يداك
ورماك جبار يتيه بحوله … شلت يمين العلج حين رماك
قم يا ابن هند وامش فيهم غازياً … فى كل جبار العزيمة شاكى
جدد لنا يوم اللواد وعهده … وأعد علينا ما حكاه الحاكى
أيام خيل الله أوغل نجمها … فى دار أهل الإفك والإشراك
يحملن كل أغر وضاح السنا … عند الكريهة باسم ضحاك
داسوا فرنسا واستباحوا أرضها … وغدوا لحوزتها من الملاك
سبحانك اللهم أمرك نافذ … لك حكمة جلت عن الإدراك

صبراً دمشق فكل هم زائل … وغداً يلوح مع النجوم سناك
تتألقين كما عهدنك درة … فى تاج أروع من أمية زاكى
فى الجاهلية كان عزك باذخاً … وازدان بالإسلام عقد حلاك
يا جنة الدنيا وبهجة أهلها … وحظيرة العباد والنساك
يا معقل الإسلام فى عليائه … لا تذعنى للغاصب السفاك
قولى لديجول مقالة شامت … أنسيت فى باريس نوح الباكى
أنسيت كيف ترنحت سيدان من … ضرب على هام الرجال دراك

مهلا فرنسا فالحوادث جمة … والدهر دوار مع الأفلاك
والله لولا الإنجليز وحلفهم … لذهبت غير حميدة ذكراك

قل للعروبة قول باك مشفق … لا تركنى للغرب فى مسعاك
فالوعد عندهم جهام خلب … وعهودهم شرك من الأشراك

البريد الأدبي

الأستاذ أحمد محرم

فجع الشعر العربي في علم من أعلامه الذين حفظوا وجوده وأقاموا عموده ومهدوا له السبيل إلى هذه النهضة : ذلك هو المغفور له الأستاذ أحمد محرم . قُبض إلى رحمة الله في الأسبوع الماضي على الفراش الذي ينسجه القدَر للأدباء الأحرار من الفاقة والمرض والوحشة ، بعد أن ظل اسمه لامعاً في سماء الأدب العربي قرابة نصف قرن . والناظر في تاريخ الشعر الحديث يراه في الرعيل الأول من شعراء الإحياء الذين خلفوا البارودي على إرث الشعر فجددوا باليه وأنعشوا ذاويه ، ثم تخطفتهم المنايا واحداً بعد واحد فلم يبق منهم غير مطران والكاشف !

كان أحمد محرم من الشعراء المطبوعين على الديباجة المشرقة والقافية المحكمة ؛ وكان يطيل في غير سقط ، ويبالغ في غير شطط ، ويتأنق في غير تكلف . وربما كان أقل معاصريه وقوعاً على المعنى الطريف والفكرة العميقة ؛ ولكنه كان من أكثرهم احتفالا بحسن الصياغة ولطف التخيل . وقد قام في أعقاب عمره بنظم (الإلياذة الإسلامية) وهو عمل يكفي وحده لتمجيده وتخليده .

هذه كلمة ننعى بها الفقيد الكريم ولا نزعم أننا نرثيه ؛ فإن الرثاء يقتضي العلم بحياة المرثي وصفاته ومقوماته وملابساته ، ومعرفتنا بالشاعر الراحل لم تتعد المعرفة الفنية لشعره . لذلك نتقدم إلى إخوانه الذين خالطوه ولابسوه — وفي مقدمتهم الأديب الوفي للأدب ، والصديق المخلص للأصدقاء ، الأستاذ كامل كيلاني — أن يكتبوا للتاريخ ترجمة حياته وثبت مؤلفاته ؛ فإن ذلك غاية ما يطلبه الأديب من الحقوق ، في دنيا لم ينل منها ومن بنيها غير العقوق !

أين شعراؤنا ؟

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ علي محمد حسن كلمة أخذ فيها على الشعراء تقصيرهم إزاء شقيقتنا سوريا . والأستاذ مشكور على غيرته وحماسته وخاصة فيما يتعلق ببكاء شعرائنا المتفرنسين « باريس » بكاء الثكالى الوالهات ! ولوقد سقطت الاسكندرية تحت سنابك حصان موسليني الأبيض كما كان يرجو ما ذرفوا عليها دمعة واحدة !

وأحب أن أذكر بهذه المناسبة أني قلت شيئاً في حوادث لبنان سنة ١٩٤٢ حينما أمعن غربان السنغال في التنكيل بأهل بيروت! ولكن الرقابة حالت يومئذ دون نشره . ولما كانت حوادث سوريا هي حوادث لبنان ، وسنغال الأمس هم سنغال اليوم ، وعقلية فرنسا الاستعمارية لم تتغير ولن تتغير ، أستميح الرسالة الغراء نشر هذه القطعة ليعرف الكاتب الفاضل أن الشعراء لم يقصروا وإن لم يقوموا بكل ما يجب .

إلى الجنرال ديجول ! !

ديجولُ ، قلْ لي — هَداكَ اللهُ — ديجولُ
أأنتَ عما جرَى في « الأَرْزِ » مشغولُ ؟
أعطيتَ « لبنانَ » عهداً ما وفَيْتَ به
فكيف فاتك أنَّ العهدَ مسئول
فيم المواثيقُ إنْ كنتم على ثقةٍ
أنَّ المواثيقَ تمويهٌ وتضليل
قولوا لنا : كيف يحلو الظُّلمُ من فئةٍ
أجلاهمو الظّلمُ عن أوْطانهم ، قولوا
أتنكرون على الأحرار حقَّهمو
في عُقْر دارهمو ! تلك الأباطيل
جَزاؤُهم منكمُ في ظلّ رايتهم
— على المودّة — تشريدٌ وتقتيل
تركتموني — وقد أكْبرتُ ثورتكم — ؛
أقول : ثورتكم يا قوم تدجيل
أغمدْ سيوفَك إنّ البغيَ جردها
على البريء ! وسَيفُ البغي مفلول
لا تحقِرنَّ دماءً راحَ يَسْفَحُها
غِربانُ[1] جُنْدِكَ ! غالت جندكِ الغولُ
شننتَ حرباً على من لا سلاحَ له
وفي بلادكمو تجري الأفاعيل

(١) السنغال .

قد كان أولى بذاك «الهُونُ »[1] وحدهمو
فشيخكُم[2] فى إسار « الهون » مغلول

عوذوا إلى الحق ، إن الحقَّ منتصرٌ
مَنْ ذاد عنــه ، ومَنْ عاداه مخذول

إنّــا غضبنا « لِلُبْنانٍ » وسا كِنهِ
و « الأرْزُ » شاطرَه أحزانه « النّيل »

كلا الشقيقين — صانَ اللهُ حوزَته —
أبناؤه العرَبُ الغرُّ البهاليلُ

على الجندى

كتاب الفاروق عمر لمعالي هيكل باشا[3]

تبدو لنا فى ابتسامات الضحى السير
متى جلاها عزيز القول مقتدر

يا (هيكل) إن ما دبجت عن عمر
قد كان يرقبه من (هيكل) عمر

خليفة ملأ الأسماع ذو خطر   فما له غير جبار له خطر

ومن سواك انتضى فى كفه قلما
نور الهداية من فكيه منحدر ؟

ساس الأمور فعاش الكل فى دعة
وإن تفرست عن أعمالهم بهروا

ما حاد فى الله يوماً قيـــد أنملة
فى سِلم من آمنوا أو حرب من كفروا

وإن رأى شبهة جالت بخاطره   من خشية الله لا ينفك يعتذر

ويقبل الحق مهما كان مصدره   لم ينسه الحكم يوما أنه بشر

الناس فى عدله طراً سواسية   كالمشط ، ما فيهم سام ومحتقر

هذى صحائف غر راح يبسطها   (محمد) بأياد كلهـا غرر

تسرى من الأدب العالى على فلك
وهالة ما سرى فى مثلهـــا قمر

قدمت للعرب عقداً من مفاخرهم
فما هنالك تثريب إذا افتخـــروا

حلت تاريخه من كل ناحية   فكان أجمل تاريخ به صور

سفر يكمله سفر كما كملت   بعضها الآى فى التنزيل والسور

فالله يشكر ما قدمت من عمل   لدينه ، ولسان الله من شعروا

محمد برهام

مجمع العرب ...

اجتمع على مائدة جلالة الملك فاروق جمع كريم من رجالات البلاد العربية وزعمائها وفيهم سمو الأمير محمد بن عيسى آل خليفة عم حاكم البحرين ، وهو شاعر عظيم وراوية كبير، فقدم إليه صديقه الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن هذه الأبيات :

شرّفتَ يا ابن الضاربين فى الكَرمْ
جوانبَ النيــــل وَساحةَ الحرمْ

مصرُ التى كانت على طُول المدى   منارةَ العلم ومصباحَ الظُّلَمْ

لملة الإسلام فيها دَولةٌ   ولُغةُ الضاد لها فيها حُرمْ

اتحــد الجمعُ على ربوعها   واجتمع الشملُ عليها والتأمْ

قد صدقوا العزْمَ على نيّاتهم   والعربىُّ صادقٌ إذا عزم

ما العربُ إلا أمةٌ واحدةٌ   لها الجلالُ والجمالُ والقِدَمْ

قد فرقتهم كلُّ أرضٍ حرةٍ   واتحدوا فى ظل ذلك العلمْ

أليس من طينتهم كلُّ فتىً   محتدِمِ البأس إذا البأس احتدمْ

من كلِّ ممنوعٍ على الضيم فلا   يُرجىَ ، وأبّاء فليس يهتضمْ

الأمل المنشودُ آخى بينهم   وألّفتهمُ الجـــراحُ والألم

ألم يكونوا أمس آسادَ الحمى   وسادةَ الدنيا وقادةَ الأمم ؟

قد فتحوا الأرض على أقطارها   وزلزلوا كلَّ بناء فانهدم

فى كل خطوةٍ لهم غنيمةٌ   وهمةٌ علياء فى كلِّ قَدَمْ

مجد أضاعه بنوه فمضى   وحائطٌ قد ثلموهُ فانثـــلم

واليوم قد هبّت عليه نفحةٌ   منكم وسار فى خلاله الضَّرمْ

فيم التغنى بتُراثٍ ضائع   وفيم يا قوم النشيد والنغم ؟ !

لا يُدرَكُ المجدُ بمجد فائتٍ   ولا يُنالُ بالفخارِ والكَلِمْ

والحقُّ لا يُحمىَ بقولٍ أعزلٍ   الحقُّ يُحمى بالحـــديد والحمم

يا أمةَ العُرْب وفيكم أنفسٌ   تأبى على القيد وفيكم الهمم

كفاكم النومُ قروناً عدةً   من طلب الأمر الجليلَ لم يَنم

قولوا لمن نام إلى رأد الضحى
قد غطّت الشمسُ الهضاب والأكم

المجدُ لا يُرجى بحُلم زائل   من عاش فى الأوهام ياقوم وهم

محمد عبد الغنى حسن

(١) الجرمان . (٢) يتان وكان الألمان يحلون قرنا.
(٣) بمناسبة صدور الجزء الثانى



الدمـــيم ...

للأستاذ حبيب الزحلاوى

- ٢ -

ألقت الباخرة «إيجبتو» مراسيها ، وأخذ الركاب يتزاحمون ويلتفون حول الضابط المكلف بالتأشير على الجوازات ، هذا يتوسل ، وذاك يطلب ، وذلك يتضرع ، وهذه تتدلل ، وتلك تغمز الضابط تستحثه التأشير على الجواز ، أى على السماح بالدخول إلى جزيرة «الورد» كما يسميها الطليان .

لا بد من الانتظار الطويل ريثما ينتهى الضابط من أسئلة سخيفة كان يخص بها السيدات الجميلات .

اقتعدت مقعداً بعيداً عن الزحمة أنتظر دورى ، وإذا برجل يقترب منى ويقول : إنه مصرى مثلى جاء ليقضى فترة من إجازة الصيف فى هذه الجزيرة التى قرأ وصفاً لها فى الصحف فخال أنها قطعة من جنات عدن ، وإنه ما جاء إلا منساقاً بفعل الدعاية التى أحدثتها الصحافة فى نفسه ، فى حين أنه ألف الاصطياف فى مدن «الكوت دازر» وأخذ يتكلم عن مصايف فرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا بلهجة حارة ولفظ عذب وعبارات مختارة من صحيح اللغة ، وكان يدعونى صديقه .

نظرت إلى وجه هذا الرجل الذى طرح علىّ صداقته فإذا به يمثل الدمامة بله البشاعة خير تمثيل : أعمش ، أمرط الحاجبين ، أصلع ، فى جبينه وعلى خديه ندوب الجدرى ، وفى عنقه أخدود من أثر جراحة ؛ وهو فوق هذا أستاذ علم الزراعة فى الجامعة يحمل شهادة دكتور ... وقد أدهشنى عند ما قال لى إنه فى الرابعة والثلاثين من عمره وقد كنت أظن أكثر من ذلك .

لقد سحرنى هذا الدميم بعذب حديثه وطيب بيانه وحسن اطلاعه فانقدت إليه ، فذهبنا بعد أن تركنا الباخرة إلى أول فندق رضينا به اعتباطاً وقد أشر الضابط السمج على جوازى سفرنا .

ارتاحت نفسى إلى صداقة هذا الدميم لأن فيه من جمال الصفات الروحية والخلقية ما يستر تلك البشاعة الواضحة المنكرة ؛ ولأن خفة ظله ، وحضور ذهنه ، وبراعته فى التنكيت تاتى ستاراً على دمامته المنفّرة .

اسمع ياصاحبى ، أحسب أن المشوه كالأحدب والمخلع والأعرج وكل ذى عاهة يعتقد أنك ستسخر منه فيبادرك بسخرية مؤلمة . والظريف فى أصحاب هذه العاهات أن البارع منهم يمزج سخريته بالابتسام والضحك وبذلك يبطن الانتقام بالمرح .

كنت ألقى صاحبى الدميم فى الصباح على مائدة الطعام ، ثم نتنحى ناحية فى بستان أو حرج بعيدين عن الناس وضوضائهم لنقرأ ؛ وكان رفيقى ولوعاً مثلى بقراءة الكتب ، ثم نعود فنجتمع فنتحدث فيما قرأنا .

لم أسمع من صديقى هذا حديثاً يخرج عن دائرة الكتب وأسماء المؤلفين . ومن غريب أطوار هـذا الدكتور الجامعى أنه يقرأ الأدب ويتذوقه ؛ وله فى أدبائنا المعاصرين نظرات صائبات ؛ وله آراء فى كلية الآداب أسكت عن ذكرها ، ولكنه يجهل الحياة بجهله المرأة . وقد قال لى : إنه لا يعرفها ويهرب منها لأنها هبة الشيطان ، وعصا إبليس ، وسم الحية ، وأنه ما من رجل يطاوع هواه ويساير شهوته فيقترب من امرأة إلا وهو ضعيف العقل ملموس من خبال الغريزة ! ؟

ضحكت فى سرى من ضلال هذا الرأى وانتحلت لصديقى عذراً فى إبدائه على هذا النمط المخالف لسنة الطبيعة وقدّرت ظروفه الخاصة التى جعلته ينفر من المرأة ويتجنى فى الحكم عليها ، ولم يعد الحديث عنها يدور لنا على لسان .

أخذت الوحشة من الوحدة يدب دبيبها فى نفسى ، والسأم يرين علىّ من هذه البلدة الصغيرة الخالية من وسائل التسلية ، والتى لا أنيس لى فيها ولا سمير سوى الكتاب وصديقى الجامعى اللطيف .

كل ما فى طبيعة (رودس) هادئ ، البحر والأشجار ، السماء والناس ، والقلوب كلها هادئة أو شبه متحركة . وقلما رأيت حتى فى الفتيات الرودسيات المرحات عيوناً تتطلع إلى القلوب

أو ترميها بنظرات ، فإن فعلت فهي تتطلع إليها خلسة تشتهيها شهوة هادئة ولا ترميها رمية صائبة .

كيف آلف الهدوء وطبيعة رفيقي على النحو الذي وصفته لك ؟ وكيف لا تتوق نفسي إلى صخب الحياة وقد اتخذت « بيرون » وكل مؤلفاته رفيقاً لي وسميراً ومعلماً في اعتكافي في هذه الجزيرة الهادئة ؟ كيف أجمع بين حياة هادئة فاترة فرضتها عليّ طبيعة وجودي في هذه الجزيرة الساحرة مع هذا الصديق الدميم عدو المرأة البعيد عن الحياة ، وحياة قلقة حيرى ، صاخبة فياضة تضطرب في صدر رفيقي « بيرون » العظيم وقد سارت عدواها إلى صدري ؟

صممت على الرحيل ... ولكن إلى أين ؟

قال لي رب الفندق : إن في أعالي الجزيرة فندقا جميلا قائما على القمة بين أحراج الصنوبر تحسن الإقامة فيه فترة من الزمن ؛ فقطعت الرأي على الذهاب إليه . ومن الدهش أني ما كدت أضع حقيبتي في السيارة حتى رأيت حقائب صديقي الدميم تلقى في السيارة ووجدت هذا الصديق نفسه ينحط في المقعد ويجذبني إليه جذباً وقال : أتهرب مني إلى الجبال وتتركني وحدي في هذا البلد الميت ؟

قلت قلبك هو الميت يا صديقي ! إن الحياة هي الحياة التي نعرفها نحن الأصحاء ، أما أنت المريض ميت القلب فلا تعرفها ولا تحس بوجودها .

لم يعر فورة نفسي التفاتاً ... وأشار إلى سائق السيارة أن يسير . ولما كانت السيارة تدرج على شاطئ البحر وتنعرج وتتسلق جبالا هي مجموعة من حدائق وبساتين كان صاحبي ملتزماً الصمت ، وما كنت أعرف أكان صمته ذاك وسيلة لتهدئة نفسي ، أم لعلاك ما رميت به قلبه بالموات ولوك هذه الفرية .

ما أكثر وجوه الشبه بين فندق « الأيل » ويسمونه باللغة الإيطالية « شيرفو » وبين الأديار في لبنان ! سكان الأديرة قساوسة جرفتهم الأقدار إلى هذا المحيط الضيق فأخذوا يمنون أنفسهم بمحيط واسع تتحقق فيه الأماني وتظهر الغاية الإلهية من الوجود الإنساني عقب الخلاص من هذا العالم الفاني !

سكان فندق « شيرفو » أكثرهم مرضى ينتجعون العافية في هذه المصحة ، وشيوخ يأملون في العودة إلى الحياة ، حياة الشباب من طريق الاستراحة وطيب التغذية ، وفتية صغار يضيق بهم فناء الفندق فيتسرحون في الحرج القريب ويمرحون . وكنت أنا وصديقي الدميم كريضين أو قسيسين ننتجع العافية أو نمني النفس بسعادة لا نجدها إلا في قراءة الكتب وفي شيء آخر محبوب أكثر من الكتب .

قال لي صاحبي ذات مساء وقد عاد من رحلة في تسلق الصخور : « لقد وجدتها ، لقد وجدتها » .

كانت نبرات صوته تدل في هذه المرة على شعور لم أتبين مثله في كلامه معي من قبل ، فقلت : وجدت من ؟ من هي التي وجدتها ؟

ولما لم يجب على سؤالي ولو بكلمة واحدة لم أعر تاء التأنيث اهتماماً لأني عرفت فيه نفوراً من الأنثى وسمعت حكمه الصارم على كل من يقترب منها .

تغيب عني في تلك الليلة فلم أر له وجهاً في غرفة المائدة ولا في قاعة الجلوس . وفي صبيحة اليوم التالي لمحته يهرول صوب وادي « أبولون » يحمل هراوة ليلحق بطائفة من النسوة ولم أرها انحدرت فيه قبله

من أين أقبلت هذه الزمرة من النساء ؟ ما علاقة صاحبي بهن؟ من هي التي وجدها ؟ هل هي واحدة منهن ؟ لا أدري !

الفندق الذي أقيم فيه محدود مساحة وارتفاعاً ، أكاد أعرف نزلاءه بملامحهم ووجوههم واحداً واحداً ، وواحدة واحدة ، من شيوخ وأطفال كأن عنصر الكهول والشباب لا وجود له ولا حساب ، فمن أين أقبلت زمرة النساء التي لحق بها صاحبي واندمج فيها حتى صرت لا أرى له وجهاً لا في الصباح ولا وقت تناول طعام الظهر أو العشاء ؟ !

نضوت ثوب البلادة ، واطرحت الكتاب جانباً ، وقمت أسعى . هداني السعي إلى فندق ملحق بفندقنا قائم على مرتفع ليس ببعيد ، تحجبه غياض الصنوبر عنا ، وتمج فيه الحياة ، ويصطخب مرح الشباب بأمواج من السرور ، ورأيت صاحبي الدميم تحف به جماعة من فتيان وفتيات يقهقهون . تقدمت قليلا وما كدت أدنو منهم حتى أحاطوا بي وأخذوا ينهالون عليّ بأقوال فيها ضحك ومزاح وعدم تورع في السخرية من شاب مثلي دأبه القعود والقراءة والنوم ، وآفته الكبرى مصاحبة رجل تتمثل فيه الدمامة .

أدركت مبلغ تسامح صاحبي معهم في المزاح حتى تجرأوا

عليّ أنا الذى لم أرهم قبل هذه اللحظة ، وكالوا لى بذات الكيل الذى رضى هو به .

أنقذت موقفى بتصويب سخرية لاذعة إلى جمال أبرز فتاة ، وإلى رجولة شاب مسكين فى الزمرة ، ولم أتعفف عن صد كل مازح أوممازحة بضحكة المستهزىء .

شعرت بأنى كدت أعكر الجو ، وأجلب حقد النفوس على ، التفت إلى رئيس الموسيقى وطلبت إليه أن يعزف رقصة « الفالس » ، واجتذبت فتاة ليست على شىء من الجمال ، وأخذت أراقصها برشاقة وبراعة ... تقلبت خمس راقصات على ذراعى . ولم تكف الجوقة الموسيقية عن العزف لأنى دغدغت كف رئيسها فصار طوع إشارتى .

صفا الجو الذى عكرته بسلاطتى التى ما كان لى محيص عن التوسل بها لإنقاذ نفسى من المأزق الذى حشرنى فيه صاحبى على غير قصد . ولما فرغنا من الرقص تكونت حولى الراقصات اللاتى أعجبن برقصى فأخذت أحدثهن حديثاً طريفاً فى فن الرقص ثم فى الأزياء والعواطف وما تركت القاعة وقد كاد الصبح يتنفس حتى أيقنت أن سلطانى مد رواقه على الفتيات والسيدات والشبان النازلين فى ملحق الفندق

لم أنس أن آخذ صاحبى الدميم معى حين عودتى إلى الفندق ، ولما انفردنا قال لى إنه انتقل إلى ملحق الفندق « فعرف فيه فتاة جذابة أذكت بفتنتها الجذوة الكامنة فى قلبه . وقد عقد عزمه على الاقتران بها وأنه سيتزوجها لا محالة .

قلت : أفى النساء عليلة نظر وحسّ وذوق ترضى بدمامتك وشناعتك ؟

أخرسنى الخبيث بأشارة فضحكت .

أعدت على مسمعه قوله فى المرأة أنها هبة الشيطان وسم الأفعى ، وعصا إبليس ؛ وحكمه على الرجل الذى يدنو منها بأنه خفيف العقل ، ممسوس بخيال الغريزة فأجاب .

كان حكمى ذاك قبل أن أصعق بفتنتها .

قلت اذهب إلى فراشك لأنك متعب وسنتحدث فى النهار فى أمر زواجك .

قال محتجاً : لا ، لا أذهب إلى فراشى ولن أذهب إليه ، لا أطيق النوم . وارتمى على كتفى كطفل وقال بصوت باك كبكاء الطفل « لقد أحببت » سمسم . بكل جوارحى العطشى ، ماعرفت الراحة منذ عرفت الآنسة « سمسم » ولن يستقر بى قرار حتى أبنى بها

قلت : أجاد أنت فيما تقول أم هازل ؟

رفع رأسه عن كتفى ونظر إلىّ نظرة استفسار حادة فتابعت قولى : كيف تكون جاداً وقد اضطرنى موقف أصحابك من فتيان وفتيات منك ومنى ، وإمعانهم فى الضحك والاستهزاء بك إلى مخاشنتهم ، وكانت الآنسة « سمسم » هذه إحدى الضاحكات ، وهل يشاد بناء الزواج على غير قواعد مكينة من الرصانة والجد ؟

قال : مصيبتى الكبرى فى وجهى المشوه الذى يثير الضحك ، ثم ما شأنى فيمن يضحكون منى فأسخر بهم فأهملهم بلحظة واحدة وأنكرهم كأن لا وجود لهم ؟ أما الآنسة « سمسم » فما ضحكت قط منى ولا هزأت بى . كنت أراقبها وأستشف معانى ضحكها . كنت أحس نظراتها تهز مشاعرى ، وحنوها يظللنى كغمامة موسى الكليم ، وأن شفقتها علىّ قد تدفع بى إلى اقتحام الصعاب وتذليلها لأجل إسعادها ، وسأسعدها إذا رضيت بى زوجاً لها ، سترضى وسأتزوجها .

قلت أتعرف حكاية الشاب الفلاح مع ابنة الملك التى أحبها ؟

قال : لا أعرف الملوك والحكايات ، بل أعرف حكاية عرشى فى قلبى تستوى عليه مليكتى « سمسم » .

قلت : « سمسم » هذه هل سألت عنها ، هل عرفت أهلها ، هل كاشفتها الحب ، هل عرضت عليها الزواج ، هل رضيت بك بعلا ؟

صرخ فى وجهى صرخة شعرت بحرارتها تغلب دويها وقال : هذه أمور أترك لك تذليلها ، أما أنا فلست براغب فقط بل أريد حتماً الزواج من « سمسم » وسأرغمها على الرضى بى .

عجباً ، كيف ترغم فتاة على قبول زواج ؟

قال : يالك من أبله ، لقد لمحت شفقتها بى ترتسم فى نظراتها ، والشفقة عنصر قوى من عناصر الرضى والحب .

قلت أوافقك جدلا على استنتاجك ، ولكن هب أنها ليست على دينك فكيف يكون الحل ؟

قال : من منا لا يقدم الدين الإنسانى على نواميس الأديان السماوية وكلها فى الجوهر واحد ؟

قلت : دستور الدولة والعرف .

قال : أستهين بالعرف وبالشرائع التى تحول دون اتحاد قلبين وأدار كتفه وانصرف .

(يتبع) **حبيب الزحلاوى**